

تأملات في آفاق الإمام موسى الكاظم (ع)

محمد حسين فضل الله



دار المعارف للمطبوعات









تأملات

في آفاق الامام موسى الكاظم

عليه السلام



محمد حسين فضل الله

تأملات
في آفاق الامام موسى الكاظم
عليه السلام

دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

دار التعارف للمطبوعات

المكتب : شارع سوريا ـ بناية درويش ـ الطابق الثالث
الادارة والمعرض : حارة حريك ـ المنشية ـ شارع دكاش ـ بناية الحسنين
تلفون : ٨٣٧٨٥٧ ـ ٨٢٣٦٨٥
صندوق البريد ٨٦٠١ ـ ١١ ـ ٦٤٣ ـ ١١

تأملات
في آفاق الإمام موسى الكاظم عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لماذا الحديث عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع)؟ هل هو حديث للمعرفة المجردة التي تعمل على تحليل التاريخ للوصول إلى أسراره؟

أو حديث للمعرفـة العقيديـة المتصلة بالخط العملي لـلإسلام، فيما يمثله الإمام من موقـع إسلامي متقـدم، على صعيد الإمـامة المنفتحـة على حركة القيادة الإسلامية التي تمثّل التزاماً في الوعي العقيدي كما تمثّل التزاماً في الوعي العملي؟

لعلّ من الطبيعي أن لا تكون المعرفة المجردة غايتنا من البحث، بـل الغاية هي المسألة الإسلامية في دائرة شخصية الإمام (ع) من أجل أن نتبيّن، أيّ إمام هو، في ملامحه الشخصية الرسالية التي تمثل جانب القدوة في حياة المسلمين، أو في تخطيطه العملي للمسألة الحـركية التغيـيـرية التي تـواجه الواقع المنحرف، من أجل أن يتحول إلى الخط المستقيم لنتعرف من خلال ذلك إلى حركـة التخطيط التغيـيـري في واقعنا المتحـرك الذي يختـزن في داخله الكثير من عناصر التفجّر. . ومـا هي طبيعة عـلاقاتـه بالحكم القـائم وكيفـ نوفق بين ما تنقله بعض كتب التاريخ من الخط الإيجـابي فيها، وبين العناوين الكبرى التي تحكم قضية الرفض في الاستسلام للحكم الجائر فيما كان الأئمة يؤكدون في وعي أتباعهم من ذلك. وهذا هو ما نحاوله في هـذه التأملات السريعة في حياة الإمام (ع).

❊ ❊ ❊



ملاحظـات حـول دراسـة الأئمـة

وقد نحتاج إلى إثارة قضيةٍ بارزةٍ مهمةٍ جداً في الصورة التي يقدمها الوعاظ والخطباء عن الأئمة (ع) للوسط الشعبي فنرى أن التأكيد يتركز على جانب الغيب في شخصيته، فيما هي الأسرار الغامضة، وفيما هي المعاجز الخارقة، وعلى جانب المأساة التي تستنزف الدمع بحيث تتحرك المسألة في حشد أكبر عدد ممكن من العناصر المأساوية، كيفما كانت، للإيحاء بشخصية الضحية، التي تضيع أمامها شخصية البطل. .

ولعل الأساس في ذلك هو أن هناك استغراقاً في الذات على أساس تأكيد عظمة الإمام من خلال الغيب، وتأكيد العاطفة في العلاقة به من خلال المأساة. . وذلك من أجل الوقوف أمام الاتجاه الآخر الذي يعمل على إنكار حقه وإمامته ليزداد المؤمنون ارتباطاً به على خط الانفتاح على الغيب والعاطفة. .

وعلى ضوء ذلك، كان الاهتمام الكبير متجهاً إلى هذا الجانب من شخصيته. . وقد أدى ذلك إلى إغفال الجانب الغني من شخصيته كإنسان فيما هي ملامح العظمة الإنسانية التي لا تبتعد عن واقع المعاناة الذاتية، والجهاد العملي وإبعاد الجانب الفكري في حركة الفكر الذي يدفع بالأفكار الحركية الإمامية المنطلقة من القواعد الإسلامية العامة.

وقد وصل الانحراف في هذا الجانب إلى مستوى خطير جداً، بحيث فقدت سيرة الأئمة، في نظر بعض العلماء مضمونها الإسلامي العام الذي يمكن أن يكون مصدراً لاستلهام الحكم الشرعي، أو قاعدة للقدوة. . وذلك بحجة أن الإمام ينطلق في هذا السلوك من موقع عصمته، وتكليفه الخفي الذي لا ندركه لا من موقع القاعدة الإسلامية العامة المنطلقة من المصادر المادية للشريعة.

فنرى أن بعض الناس لا يرى في سلوك الإمام علي (ع) مع الخلفاء الذين تقدموه أساساً للانفتاح الكبير الواسع في الدائرة الإسلامية على أساس اقتضاء المصلحة الإسلامية لذلك بل يرى المسألة مسألة «قلة الأنصار»

و «الخوف على الحياة» الذي يتحرك معه التصرف في دائرة التقية.. وبذلك فإنهم يرفضون دراسة الواقع المعاصر في نطاق المشاكل المعقدة بين المسلمين في النطاق المذهبي، أو في النطاق السياسي على أساس تقديم التنازلات للآخرين من أجل الوضع الإسلامي الذي يرفض ذلك، أو على أساس التخطيط لبعض المشاريع الوحدوية التي تتناسب مع مصلحة المسلمين.

وقد نلاحظ الكثير من الحديث عن رفض اعتبار ثورة الإمام الحسين (ع) نموذجاً علمياً للحركة الإسلامية الثائرة في خط «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،» و «الرفض للسلطة الظالمة» و «الوقوف مع العزة ضد مواقف الذلة» لأن هذا الفريق يرى المسألة متعلقة بالتكليف الخاص للإمام الحسين (ع) وليس لها علاقة بالتكليف العام الذي يرتبط بالمسلمين جميعاً، فلا يجوز لهم أن يتحركوا في الاتجاه التي تحركت به ثورة الإمام الحسين (ع) فيما لو تطابقت ظروفهم مع ظروفها، لأن الإسلام يحرم عليهم إلقاء النفس في التهلكة.

وقد يقدمون سيرة الأئمة الذين جاؤوا بعد الإمام الحسين (ع) شاهداً على ذلك لأنهم لم يتحركوا في خط الثورة بل أخذوا بأسباب المسالمة والمهادنة التي قد تعيش في دائرة التقية..

إننا نحتاج إلى أن نُدخل الأئمة في حياتنا العملية من خلال التأكيد على دورهم الرسالي في حياتنا، لنشعر بأنهم يتحركون معنا في مواقعهم القيادية على صعيد الخط التربوي والسياسي والاجتماعي، في حركة الفرد والأمة مما يجعل من تأكيدنا للجانب الولائي بهم، تأكيداً للخط الفكري والعملي المتمثل بفكرهم وسلوكهم.

وقد ينبغي لنا أن نفكر بالعمل على تجديد مضمون الزيارات المرسومة للنبي محمد (ص) وللأئمة من أهل البيت (ع) باعتبار حاجة المرحلة المعاصرة إلى تربية الأمة على المفاهيم الإسلامية التي تفرضها حاجة الحركة الإسلامية العالمية إلى استلهام فكر أهل البيت (ع) في فهمهم للإسلام،

بحيث يتمثل الزائرون هذه المعاني في الفكر وفي السيرة، في أثناء زيارتهم، لتكون المسألة لديهم، هي في الاستغراق في حياة النبي والإمام بدلاً من الاستغراق في الذات.

وفي ضوء ذلك يمكننا أن نُخرج العلاقة بهم من مواقع الحب العاطفي الساذج إلى مواقع الولاية المتمثلة في الالتزام بالخط والموقف، في جوٍّ، تمتزج فيه العاطفة بالفكر، ويتحرك فيه الانتماء بالموقف.

إننا لا نريد أن نرفض إثارة الجو المأساوي، فيما عاشه الأئمة عليهم السلام من المصائب والآلام، ولكننا نرفض اعتباره عنصراً أساسياً في القضية، بحيث تغرق الجوانب الأخرى الحيّة من حياتهم في الدموع.

هذا، مع مُلاحظة مهمة جداً، وهي أن التأكيد على هذا الجانب، ولا سيّما بعد أن ارتبطت ذكريات الأئمة (ع) في وفيّاتهم بالمأساة، أبْعَدَ المضمون التاريخي عن الدقة في ملاحقة السند أو المتن بحيث تغلّب الجوّ المأساوي على حديث الخطباء من قرّاء التعزية حتى أنهم قد ينقلون بعض الأحاديث التي لا تتناسب مع مقام الأئمة فيما هي الشخصية القوية المتماسكة وفيما هو الموقف الثابت. وقد وصلَ الأمر بهم إلى أن أطلقوا بعض الكلمات المأثورة عن الأئمة (ع) باعتبارها من المسلّمات مع أنها ليست كذلك، كما في الكلمة المشهورة «ما منا إلا مسموم أو مقتول»..

وقد رأينا الشيخ المفيد ينكر ذلك ويعتبر هذه المسألة من المشهورات التي لا أصل لها، إلا في بعض الأئمة (ع) وهذا ما أكده في تصحيح الاعتقاد قال: فأما ما ذكره أبو جعفر من مضي نبينا والأئمة (ع) بالسم والقتل فمنه ما ثبت ومنه ما لم يثبت والمقطوع به أن أمير المؤمنين والحسن والحسين (ع) خرجوا من الدنيا بالقتل ولم يمت أحدهم حتف أنفه، وممن مضى بعدهم مسموماً موسى بن جعفر (ع) ويقوى في النفس أمر الرضا (ع) وإن كان فيه شك فلا طريق إلى الحكم فيمن عداهم بأنهم سمّوا أو اغتيلوا أو قتلوا صبراً فالخبر بذلك يجري مجرى الأرجاف[1] وليس إلى تيقنه سبيل[2].

---

(١) أرجف خاض في الأخبار السيئة والفتن قصد أن يهيج الناس (مجمع البحرين).

(٢) تصحيح الإعتقاد للشيخ المفيد ص ٦٣ الطبعة الثانية تبريز ١٣٧١ هـ.

لا بد من دراسة السند في مصادر حياة الأئمة

وهناك نقطة مهمة في دراسة حياة الأئمة في كل جوانبها، وهي التركيز على دراسة السند على الأصول المعتبرة في تصحيح الحديث، لأن ذلك هو الذي يعطينا الصورة القريبة من الواقع لشخصية الإمام في حياته العملية وعلاقاته بالناس، وبالحكم والحاكمين، لأن نسبة أيّ فعل أو قول أو علاقةٍ للإمام، تعني إعطاء صورة عن الإسلام في شخصه باعتباره الإمام المعصوم المفترض الطاعة. . الذي يُعتبر في قوله وفعله صورةً عن الخط العملي للإسلام مما ينعكس سلباً أو إيجاباً على التصور الفكري لشخصية الإمام وحركة الإسلام في حياته، لا سيّما إذا كانت المسألة تتصل بالجانب العقيدي في الالتزام الفكري بصفة الإمام، فيما هي عقيدة الإمامة، في تفاصيلها المتنوعة لأن الأخذ بأيّ حديث، مهما كانت قيمته، يدخل الكثير من الأشياء غير الحقيقية في هذا الأصل المهم من أصول التصور الفكري للإنسان المسلم. .

وقد يرى بعض الناس أن علينا أن نتسامح في قصص السيرة أو التاريخ بشكل عام كما نتسامح في أدلة السنن ما لم يترتب عليه معصية لله في ترك واجب أو فعل حرام، فلا مشكلة من هذه الجهة على صعيد الالتزام الإسلامي. . وهذا هو الذي أدى إلى التساهل في التدقيق في أحاديث الفضائل والمعاجز ونحوها من الأمور التي تتصل بالجوانب الشخصية للنبي أو للإمام، مما لا يؤدي إلى أي ضرر في الإسلام ولكننا نرى أن المسألة ليست بهذه السهولة، لأنها ترتبط بالمفاهيم الإسلامية العامة فيما هي القيمة الدينية، وفيما هي الخصائص الذاتية للنبي أو للإمام. . مما قد يؤكد الصدق فيه مفهوماً إسلامياً معيناً أو يؤكد الكذب فيه انحرافاً عن التصور الصحيح.

وإننا نرى أن الانحراف في مثل ذلك لا يقل خطورة عن الانحراف في الحكم الشرعي، لأنه يتصل بالعقيدة فيما هو من أصولها بينما يتصل ذلك بالفروع.

* * *



مع الشهيد السيد الصدر في (دور الأئمة في الحياة الإسلامية)

وقد أثار بعض المفكرين الإسلاميين مسألة النظرة إلى الأئمة ككل مترابط، ودراسة هذا الكل، واكتشاف ملامحه العامة وأهدافه المشتركة ومزاجه الأصيل، وبالتالي دراسة الدور الذي مارسه الأئمة جميعاً في الحياة الإسلامية. ويرى هذا المفكر الإسلامي، أن وجود دور مشترك مارسه الأئمة جميعاً ليس مجرد افتراض نبحث عن مبرراته التاريخية، وإنما هو مما تفرضه العقيدة نفسها، وفكرة الإمامة بالذات، لأن الإمامة واحدة في الجميع بمسؤولياتها وشروطها فيجب أن تنعكس انعكاساً واحداً في سلوك الأئمة وأدوارهم مهما اختلفت ألوانها الظاهرية بسبب الظروف والملابسات ويجب أن يشكل الأئمة بمجموعهم وحدة مترابطة الأجزاء يوصل كل جزء في تلك الوحدة دور الجزء الآخر ويكمله[1].

ونلاحظ على هذا الرأي أن هناك فرقاً بين الحديث عن وجود خطة متكاملة، ووحدة مترابطة بحيث يتوزع الأئمة الأدوار بشكل اختياري ليبدأ أحدهم من حيث انتهى الآخر، أو يكمل أحدهم ما بدأه الآخر وبين الحديث عن وجود هدف واحد من خلال وحدة الرسالة ووحدة المهمة الرسالية في المحافظة على استقامة الخط الرسالي وعلى وجود القاعدة القوية التي تحرس مفاهيم الرسالة من الانحراف بقيادة الأئمة، في الوقت الذي ينطلق فيه الأئمة من طبيعة الظروف الموضوعية في تحديد طبيعة التحرك ونوعية الأسلوب، وتعيين الموقف على أساس المنهج الإسلامي العام في إدارة الأمر كله، فيما يملكونه من المعرفة الإسلامية الواسعة الدقيقة التي تتيح لهم دراسة الواقع الذي يعيشون فيه، مقارناً بالحقيقة الشرعية التي يملكونها.

ونحن لا نجد هناك مؤشراً واضحاً دقيقاً للفرضية الأولى، فيما تحدده من الدور المشترك بأنه «الموقف العام الذي وقفوه في خضم الأحداث والمشاكل التي اكتنفت الرسالة، بعدانحراف التجربة وإقصائهم عن مركزهم القيادي في زعامتها[2]».

(١ و٢) محمد باقر الصدر، دور الأئمة في الحياة الإسلامية (نقلا عن دائرة المعارف الإسلامية الشيعية) ص/٩٤ ـ ٩٥.

فإن الدراسة التفصيلية لحياة الأئمة لا توحي بوجود خطة متكاملة بالمعنى التفصيلي الذي يضع لكل واحد منهم أسلوباً خاصاً، وموقعاً معيناً في دائرة الخطة. . بل كل ما هناك، أن الخط الرسالي المتمثل في الإسلام الأصيل، هو العنوان العام الذي كان يحكم حركتهم من خلال رساليتهم، تماماً كما هو العنوان العام لكل الرساليين الذين يلتزمون نهجهم ويتّبعون خطّهم، من دون تواصل عضويّ خاضع لدراسة مسبقة، وتخطيط مرسوم في هذا الموضوع.

ولم يحدد المفكر الإسلامي الكبير الملامح الذاتية لهذه الخطة إلا فيما ذكره من تتابع نشاط الإمام علي (ع) والإمام الحسين والإمام الباقر في التأكيد على الاستشهاد بالصحابة والتابعين في الحديث عن النصوص الواردة عن النبي (ص) في علي وأهل البيت، فقد استوحى من ذلك «أن العمليات الثلاث وزعت على ثلاثة أجيال، نجد أنفسنا أمام تخطيط مترابط يكمل بعضه بعضاً يستهدف الحفاظ على تواتر النصوص عبر أجيال عديدة حتى تصبح في مستوى الوضوح والاشتهار يتحدى كل مؤامرات الإخفاء والتحريف.

ونحن لا نجد في ذلك شاهداً على فكرة الترابط، بل نجد فيها مجرد نشاط طبيعي عام تفرضه طبيعة الظرف الموضوعي، والحاجة الطارئة إلى الاحتجاج بذلك في موقف الإمام علي (ع) الذي كان يعمل على إثبات حقه في مقابل المنكرين له في جو المناقشة، وفي موقف الحسين (ع) الذي كان يواجه جيش بني أمية الذي جاء يقاتله ليقيم عليه الحجّة بنصوص النبي (ص) ليبطل بذلك موقفهم العدواني، وفي موقف الباقر الذي كان يجيب بعض السائلين أو يتحدى بعض المعاندين في ذلك، فلم تكن المسألة مسألة تخطيط يستهدف الوصول إلى ما ذكره من النتيجة. . بل كانت مسألة حديث فرضته الظروف التي تختلف في طبيعتها في تحديد الحاجة المتحركة التي تنطلق في دائرة الوضع الخاص الذي تفرضه طبيعة الإمامة التي تثير من التساؤلات ما لم يثره شيء آخر. .

أماّ الحديث عن أن فكرة الإمامة بالذات تفرض ذلك لأن الإمامة واحدة في الجميع بمسؤولياتها وشروطها، فإنه لا يؤدي إلى النتيجة المذكورة، لأن وحدة الإمامة تفرض وحدة الرسالة ووحدة الهدف ولكنها لا تفرض وحدة الخطة المترابطة فيمكن أن تترك لكل إمام أن يحدد تكليفه العملي تبعاً لظروفه الخاصة التي قد تفرض تبايناً في السلوك واختلافاً في الحالات ولكن لا على أساس التناقض في الإتجاه، بل على أساس اختلاف طبيعة المعطيات المتنوّعة التي قد تجعل الحكم الشرعي هنا مختلفاً عن الحكم الشرعي هناك تبعاً لاختلاف الموضوعات فيما تختلف فيه الأوضاع والشروط، فقد تمس الحاجة إلى الصلح والمهادنة، كما فعله الإمام الحسن (ع) لأن الظروف الموضوعية كانت تقتضي إغلاق ملف الحرب التي قد تنسف الموقف كله، فلا يبقى للإمام وفريقه، أية فرصة للبقاء، مما يعرّض الخط الإسلامي الأصيل للزوال، فتكون المهادنة وسيلة من وسائل الحفاظ على الإسلام، بالرغم من الموقف الضعيف الشكلي في تلك الفترة، وقد تمس الحاجة إلى القتال والتضحية كما فعله الإمام الحسين (ع) من أجل إيجاد الصدمة القوية التي تفتح الثغرة الكبيرة في جسد الحكم المنحرف الطاغي، في الوقت الذي تبقى للمعارضة قوتها وفاعليتها بعد الحرب، بل ربما تحصل على مواقع جديدة للقوّة بفعل بعض المؤثّرات الإيجابية في هذا الاتجاه.

وهكذا نجد المسألة في سلوك الإمام السجاد (ع) الذي لم يقتصر نشاطه على الدعاء بل كان ممتداً في الجانب العلمي الذي تمثل في الرواة الكثيرين عنه، بحيث يمكننا القول بأن الإمام السجاد كان أستاذ تلك المرحلة الذي تخرّج على يديه الكثيرون من أعمدة الحياة الإسلامية آنذاك.. فنحن نناقش المقولة التي ترى في أسلوب السجاد تركيزاً على مسألة الدعاء، لا سيما إذا عرفنا أن أدعيته لم تنتشر إلا بعد وفاته بزمان طويل، وقد تكون الصورة المأخوذة عنه في الاستغراق الدائم في العبادة بحيث تستغرق يومه ونهاره وتعزله عن المجتمع غير دقيقة.. فإن دراستنا لنشاطه ولحديثه المتنوع

في مواقعه وفي عناوينه، توحي الينا بأن وقته كان يتسع لكل تلك النشاطات الكثيرة.

وهكذا وجدنا الإمامين الصادقين يتحركان علمياً بهذا الشكل الـواسع الذي لم يتحرك به الأئمة الآخرون، لأن ظروفهمـا كانت تسمـح بذلـك بما لم تسمح به ظروف غيرهم من الأئمة نظراً للحصار المفروض عليهم من قبل السلطة.

وقـد نلاحظ على هـذه الفكرة، أن الحـديث الذي أثـارها كـان مليئاً بالشواهد على وجود دور أيجابي للأئمة في الواقع الذي يتحركون فيـه بدلاً من الدور السلبي الذي يتصوره البعض الذين يختـزنون في تصـورهم صفة المـظلومية السلبيـة للأئمـة (ع) ولم يأت بشـاهد واضـح على طبيعة الـدور المشترك في نطاق الخطة المترابطة الأجزاء.

وإننا في الوقت الذي نؤكد فيـه على أن هذه الفكـرة تثير المـزيد من الاهتمام في التدقيق في حياة الأئمة (ع) وفي دراستها بهذا الشكل الجديد، ولكننا نرى أننا لا نجد فيما قدّمه هذا المفكر الإسلامي الكبير، من الشواهد على ذلك، إلا بعض القضايا التي تلتقي مع الخطوط العامـه للرسالـة، من دون أن يكون هناك دليل على الخطوط التفصيلية للفكرة والخطة.. ولذلك فلا بد من المزيد من البحث والمناقشة في هذا الموضوع الجدير بالاهتمام.

* * *

هذه ملاحظات قصيرة في بعض الأفكار التي أردنا إثارتها أمام مسألـة الدراسة الموضوعية للأئمة (ع) من أجل أن تتكامل الصـورة في كل مـواقع الـذات والموقف والـرسالـة، والحركـة، ليكـون التصـور العـام والتفصيلي لشخصيات الأئمة تصوراً إسلامياً متوازناً، كأناسٍ رساليـين في مواقع القيادة المتحركة في نـطاق المراحـل الزمنيـة، والعملية المختلفـة التي نحتاج إلى التعرف عليها في دراسةٍ مقارنةٍ تنطلق من معرفة خصـائص تلك المراحـل، ومعرفة خصائص المرحلة لنحدِّد لأنفسنا طريقة التحـرك من خلال التجـربة التي تعهدها الأئمة عليهم السلام، كلٌ في مرحلته، وفرضوا لها الحلول التي

تتناسب معها لتتحرك أفكارهم القيادية في أفكارنا، وخطواتهم العملية في خطواتنا، ولندخل في حوار طويل شاق مع الفئات المتخلفة من العلماء والمثقفين والعامة من الناس الذين يريدون تجميد حياة الأئمة في داخل مرحلتهم الزمنية فلا يوافقون على أن تمتد تجربتهم في تجاربنا، وتطلعاتهم في تطلعاتنا بل يعملون على أن يكون الإمام مجرد قمة إنسانية نتطلع إليها من بعيد من دون أن نحاول الوصول اليها أو الاقتراب منها، ليكون الالتزام بالإمامة مجرد التزامٍ تقليدي في الاعتراف بالإمام في موقعه التاريخي من دون أن يترك تأثيراته في حياتنا في أفكاره ومشاريعه وتبقى لهم الأسماء التي نعددها لأولادنا ليحفظوها في أذهانهم من دون أن يعيشوها في حياتهم.

وتتحول المسألة لدينا في الارتباط بالأئمة ارتباطاً تقليدياً، يتخذ مظهره في المواليد والوفيات التي نتحدث فيها عن آفاق الفرح والحزن التقليديين وفي الزيارات التي لا تزيد الزائر معرفةً بالإمام، بقدر ما تزيده عاطفةً وانفعالاً واندفاعاً من دون أن تتأثر حياته العملية بذلك لتدخل المسألة في التقاليد والطقوس التي تتجمد في وعينا لتجمِّد الحياة من حولنا في نطاق الوعي الإسلامي.. حتى إننا أصبحنا نخشى من العامة التي قد تختزن بعض التصورات غير الصحيحة في كثير من القضايا، أو بعض الممارسات القلقة في بعض الأوضاع، فلا نتمكن، حتى على مستوى العلماء الكبار، من التنبيه عليها حذراً من أن نفقد ثقتنا عندهم..

إننا نريد للأئمة أن يتحركوا معنا في حياتنا ليقودوها من موقعهم الفكري الإسلامي، ومن موقعهم الروحي الإيماني، ومن إمامتهم المتحركة في اتجاه حماية الإسلام من الانحراف على خط رسول اللّه (ص) ولذلك فإننا ندعو إلى إثارة كل مفاهيمهم في العقيدة وفي الشريعة وفي الحياة في وعي الأمة لتختزن الأمة في وعيها ذلك كله، فلا تستغرق في أجواء الغيب المجرد، والمأساة العميقة، فقد يكون للغيب بعض الملامح في حياتهم، مما يخص اللّه به أولياءه ولكنهم لا يتحولون بذلك إلى شخصياتٍ غيبيةٍ، وقد يكون للمأساة بعض الدور في واقعهم، ولكنها ليست المأساة المنطلقة من

حالةٍ في الذات، بل من حركة في الرسالة مما يجعلها مثيرةً للإعتزاز، بدلاً من أن تكون مثيرةً للحزن والبكاء. .

وإذا كنا نحتاج إلى إثارة هذا أو ذاك، فليس ذلك من جهة كونه هدفنا بذاته، بل لنعطي الموقع بعض القداسة، ونمنح الذكرى بعض العناصر المثيرة في إثارة الوعي الإسلامي ضد الذين يصنعون المأساة في الماضي كوسيلة من وسائل إثارته ضد الذين صنعوها في الحاضر، فإذا تحدثنا عن مأساة الحسين (ع) فلكي نتطلع إلى النماذج الحسينية الإسلامية في واقعنا لئلا تتجدد مسألة كربلاء في الواقع السياسي الإسلامي، فيقتل الضالون والطغاة أكثر من حسينٍ في الساحة، وهكذا تكون إثارة المأساة جزءً من خطة إسلامية سياسية تتحركُ من أجل تحويل الحزن الإنساني من حالةٍ انفعاليةٍ سلبيةٍ إلى حركةٍ ثوريةٍ إيجابيةٍ تفتح القلب على الحاضر أكثر من فتحه على الماضي ليكون الماضي منطلقاً للدرس بدلاً من أن يكون ساحة للاستغراق على هدىً الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون**﴾ (٢/١٣٤).

* * *

من الملامح البارزة في شخصية الإمام الكاظم

والآن ما هي الملامح البارزة لشخصية الإمام الكاظم في الطابع العام لحياته، فيما يمكن أن يكون أساساً للشخصية الرسالية في الخصائص المتصلة بالعمق الداخلي للمضمون الروحي الذي تتأكد فيه الصفة الإسلامية الإيمانية الشمولية في الإخلاص للّه، والمحبة له في الحالة العفوية المنفتحة على كل معاني العبودية الكامنه في سر وجود الذات الإنسانية أمام الألوهية الرحيمة القادرة فيما توحي به كلمة إسلام الوجه للّه التي يعيشها الإنسان في كل وجوده ليجعل من حياته كلها حركةً في طريق اللّه في أجواء الحب للّه والخوف منه وهذا ما كان يعيشبه الأئمة من أهل البيت في الجو العبادي المميز الذي كان يتمثل في ابتهالاتهم الخاشعة الخاضعة في الأدعية المعبّرة عن كل ما يعيش في قلوبهم من انفتاح على اللّه بكل كياناتهم في نطاقٍ متحركٍ من

الروحانية الصافية المليئة بالشعور الفياض بالطهارة الروحية في ذوبان الذات في إحساسها بوجودها الفقير في كل شيء إلى اللّه.

وإذا لاحظنا النهج الإيماني العرفاني في سلوك أهل البيت (ع) وأدعيتهم في معانيها التي لا تغرق في تعقيد الفلسفات العرفانية الواردة إلى التفكير الإسلامي من خلال قواعد التفكير لدى الآخرين، فإننا نرى فيها انسجاماً مع النهج القرآني في الحديث عن اللّه وعن صفاته وعن نعمه وعن آفاق عظمته، فلا تشعر وأنت تقرأها بأيّ جوٍّ غريب عن تفاصيل الجو القرآني، بل ترى فيها حركةً قرآنيةً على مستوى المفاهيم والمشاعر والتطلعات.

ولن تجد في الاستغراق في المضمون العبادي على مستوى الفكر والسلوك أيّ نوع من الانفصال عن الحياة في قضاياها وأوضاعها المسؤولة بل تجد ـ بدلاً من ذلك ـ استغراقاً في المسؤولية الواسعة التي يفرضها الموقع القيادي الذي يقفون فيه، ولذلك فإنك، تجد حياة الأئمة مليئةً بالنشاط العلمي والاجتماعي، بالإضافة إلى النشاط العبادي الذي كان يمثل الحالة الروحية المتطلبة إلى اللّه في شوقٍ ولهفةٍ وحبٍ كبير، مما يجعل التفرغ لعبادة اللّه مطلباً روحياً يبتهل إلى اللّه من أجل التوفيق إليه، لا محاولة للتخلص من المسؤوليات الأخرى، فهي نوع من العبادة المتمثل في التعبير عن عمق الحب للّه في خشوعه بين يديه، وابتهالاته في رحاب قدسه ورضوانه، وهذا ما نستوحيه مما روي عنه في السجن في قوله: (**اللّهم، إني طالما كنت أسألك أن تفرغني لعبادتك، وقد استجبت مني فلك الحمد**)[1].

إنه التعبير عن الحب للّه، أكثر مما هو التعبير عن إرادة الخلاص من المسؤولية فلم يكن شغله الذي ينطلق فيه مشكلةً له، بل كان التفرغ لعبادة اللّه شوقاً شعورياً لروحيته.

---

(١) وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٣٣٩) (نقلا عن حياة الإمام موسى للقرشي).

وهكذا رأينا كيف حوّل الإمام الكاظم (ع) إقامته في السجن إلى فرصةٍ للعبادة المتواصلة التي يعيش فيها الفرح الروحي مع اللّه، كما هي حالة أولياء اللّه الذين يشغلهم حب اللّه عن التفكير في الآلام الصغيرة، فقد ورد، في تاريخ أبي الفداء، عن شقيقة السندى بن شاهك، حينما سجن الإمام في بيت أخيها، في حديثها عن عبادة الإمامَ في السجن «أنه إذا صلى العتمة حمد اللّه ومجده ودعاه إلى أن يزول الليل، ثم يقوم، ويصلّي حتى يطلع الصبح، فيصلي الصبح، ثم يذكر اللّه حتى تطلع الشمس، ثم يقعد إلى ارتفاع الضحى، ثم يرقد ويستيقظ قبل الزوال، ثم يصلي ما بين المغرب والعتمة، فكان هذا دأبه إلى أن مات[1].

وهذا ما يجب أن نستوحيه للمسلمين الذين تفرض عليهم الظروف الصعبة دخول سجون الكافرين والطاغين، ويتعرضون فيها للكثير من الضغوطات القاسية مما يمارسه السجانون عليهم، ليسقطوا مواقفهم، ويهزموا روحياتهم، ويقودوهم إلى بعض الأوضاع السلبية فيما يلوحون به من الوعد بالتخفيف عنهم، في حالات الألم الشديد، فإنّ بإمكانهم أن يستلهموا روحانية الإيمان باللّه، في الانفتاح على التفكير به والخشوع له، والدعاء له في كل مهماتهم، لترتفع معنوياتهم من خلال ذلك، وينفصلوا عن الجو الخانق إلى الجو الرحب الواسع، في آفاق اللّه، في رحمته ولطفه ورضوانه.

* * *

كيف نستوحي هذا السلوك في حياتنا

وقد نحتاج إلى استلهام هذا السلوك العبادي الذي كان يعيشه الأئمة الهداة من أهل البيت، ولا سيما فيما قرأناه من عبادة الإمام موسى الكاظم (ع) وذلك فيما يجب أن تعيشه التربية الإسلامية في إعداد العلماء والدعاة إلى اللّه، بالتأكيد على الجانب الروحي في حركة الجو العبادي الذي يرتفع بالإنسان المؤمن إلى آفاق الروحانية العليا التي تجعل العلاقة باللّه هي

---

(١) تاريخ أبي الفداء ج ٣ ص ١٣ (نقلا عن حياة الإمام للقرشي).

الغاية العظيمة التي يتحرك نحوها فيما يريده لنفسه من حركةٍ وحياةٍ في الأتجاه العملي الذي يُعدّ نفسه له في القيام بمهمة خدمة الإسلام في الدعوة إليه، والجهاد في سبيله، والعمل الدائب من أجل إعادة الإسلام إلى الحياة على مستوىٰ الحكم والشريعة والمنهج والحركة الشاملة فإن ذلك يحتاج إلى طاقةٍ روحيةٍ كبيرةٍ، فيما هي روحانية الفكرَ والممارسة انطلاقاً من التحديات الكثيرة التي تواجهه، على مستوىٰ الترغيب أو الترهيب في المغريات التي تقدّم إليه، وفي التهاويل التي تدور في آفاقه، من أجل اسقاط موقفه للإنحراف به عن الخط، أو لإرباك الواقع الإسلامي من خلاله.. فإن العلم لا يكفي في صيانة صاحبه، إذا لم يرافقه إيمان يتعمق في مواقع الروح العميقة في وعي الإنسان، كما أن طبيعة الإنتماء إلى الحركة الإسلامية لا يكفي في إخلاص الحركيين بدون تقوىٰ ترتكز على الفكر والعمل، لأن الحركية قد تتحول إلى نوع من المهنة والعادة.

إن الطاقة الروحية هي روح الحركة، وسرّ الشخصية،، وشرط الثبات فلا بد أن نتحرك فيها من موقع الفكرة في آيات اللّه، وكلمات رسوله ومن موقع القدوة في سيرة النبي (ص) وأهل بيته والصالحين من عباده.

***

وقد نستطيع أن نجد بعض الملامح الحية المتحركة في شخصية الإمام الكاظم (ع) في نشاطه العلمي الذي يرصد الحاجة العامة من خلال القضايا المطروحة في المجتمع الإسلامي، فيما نقله لنا التاريخ المأثور في سيرته من ذلك.

وقد يكون من المؤسف أن لا نجد هناك كتاباً وثائقياً يشتمل على مجموع ما صدر عن الإمام الكاظم (ع) من أفكاره ووصاياه وطريقته في إدارة الحركة العلمية في تلك المرحلة «فيما عدا الجهد المشكور للشيخ العطاردي في مسند الإمام الكاظم».. كما إننا لا نجد هناك عناية كبيرة بدراسة الأسس النقدية في التراث المنقول عنه، ليصار إلى اعتباره في مستوى النص

الإسلامي الذي ينقل إلينا الحقيقة الإسلامية الناصعة الصادرة عن مصادر الوحي المعصومة.

وقد نقل عنه الرواة من الفقه والتفسير والمواعظ والوصايا الكثير مما يوحي بالنشاط الكبير في إغناء المجتمع الإسلامي بالفكر والتربية، والتفقه، كوسيلة من وسائل الإرتفاع بالمستوى الفكري الذي يركز الوجود الإسلامي على أساسٍ ثابتٍ انطلاقاً من الخط الإسلامي الذي يحمّل العلماء مسؤولية نشر العلم لا سيّما في حالات سيطرة الانحراف والبدع على المجتمع، وذلك بنفس القوة التي حمّل فيها الجهال مسؤولية التعلم.. وهكذا نجد المؤرخين يتحدثون عن سعة نشاطه العلمي فقد جاء في المناقب أنه أخذ عنه العلماء ما لايحصى كثرةً وذكر عنه الخطيب في تاريخ بغداد والسمعاني في الرسالة القوامية وأبو صالح أحمد المؤذن في الأربعين وأبو عبد الله بن بطة في الإبانة والثعلبي في الكشف والبيان، وكان أحمد بن حنبل إذا روى عنه قال: حدثني موسى بن جعفر قال: حدثني أبي جعفر بن محمد قال: حدثني أبي محمد بن علي قال: حدثني أبي علي بن الحسين قال: حدثني أبي الحسين بن علي قال: حدثني أبي علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله (ص) ثم قال أحمد: وهذا اسناد لو قرىء على المجنون لأفاق[1].

وذكر السيد ابن طاوس في الأنوار البهية، أن أصحاب الإمام وخواصه كانوا يحضرون مجلسه ومعهم في أكمامهم ألواح أبنوس لطاف واميال فإذا نطق بكلمة أو أفتىٰ في نازلة بادروا إلى تسجيل ذلك[2].

الإمام يتحدث عن العقل في وصيةٍ طويلةٍ

وتنقل لنا سيرته المباركة بأنه كان يتخذ أسلوب الوصايا التي قد تتخذ موضوعات متنوعة، وقد تتخذ موضوعاً واحداً متنوّع الأبعاد وهذا ما نراه فيما

(١) أعيان الشيعة ج ٢ ص ٩/طبعة دار التعارف.

(٢) الأنوار البهية ص ٩١/(نقلا عن حياة الإمام للقرشي) ص ٢ ج ١.

روى من وصاياه لتلميذه هشام بن الحكم الذي كان تلميذاً لأبيه، ولعل أهمها وصيته الطويلة التي أدار فيها الحديث حول العقل من خلال النهج القرآني الذي أكد على دور العقل كحجة للّه على عباده فيما هي مسألة الإيمان والكفر والضلال والهدى، والاستقامة والانحراف، وأثار الحديث عن السلبيات والإيجابيات في سلوك الإنسان من خلال تحريك العقل أو تجميده، ودخل في التفاصيل العملية المتصلة بالتفاصيل المتنوعة لأوضاع الإنسان الفردية والإجتماعية من خلال ذلك، فلم يعد العقل لديه مجرد قوةٍ تتصل بالكليات العامة في حياته، بل تحولت إلى قاعدةٍ للوعي التفصيلي الذي يحدد للإنسان مواقع الحكمة في حياته التي يضع فيها الأشياء في مواضعها لتكون المسألة عنده أن يدرس كل الأمور التي تواجهه بالطريقة الواعية التي تحسب كل شيء بحساباتٍ دقيقةٍ تحيط بها من كل جهة، ثم لا يكتفي بالنتائج الفكرية فيما هو التصور، بل لا بد أن يتحرك في خط النتائج العملية، فيما هي الممارسة، وقد تحدث في هذا الاتجاه عن العلم في مصاحبته للعقل، وعن الكثرة من حيث ابتعادها في أحكامها وممارساتها عن العقل، فلا تُعتبر قيمةً إيجابيةً لأن الكمّ لا يحمل معنىً للقيمة إذا لم يرتبط بالنوع، وعن القلّة من حيث أن الغالب فيها الانطلاق من عمق الفكر وحركة الوعي. . وانطلقت الوصية لتربط الخوف من اللّه والعمل للآخرة والتوازن في السلوك الاجتماعي، والاتّزان في الكلام، بالعقل. . مما يجعل من هذه الوصية وثيقةً إسلاميةً للمنهج القرآني في تقييم العقل وفي مسؤولية تحريكه، وفي الأفق الواسع الذي يتحرك الإنسان من خلاله في عالم الفكر والعمل، الأمر الذي يجعل المنهج الأخلاقي يتداخل مع المنهج العقلي. وقد يكون هذا التأكيد على العقل، في هذه الوصية، وفي غيرها من الوصايا والأحاديث التي جاءت في حديث أئمة أهل البيت (ع) للانطلاق بالخط الإسلامي في اتجاه اعتبار العقل أساساً للقاعدة الفكرية الإسلامية فيما يأخذ به المسلم أو فيما يدعه، ليملك من خلاله الميزان الذي يزن به الأمور فلا يقع في قبضة الخرافة، ولا يتحرك في أجواء الوهم والخيال.

وقد يكون الحديث مع هشام بن الحكم وسيلةً من وسائل تقوية المنهج

العقلي الذي كان يتحرك فيه هشام في حواره العقلي الذي كان يحركه في ساحة الصراع في جوانب العقيدة المتنوعة.

وهذا هو ما تحتاج الحركة الإسلامية إليه في منهجها الفكري وخطها العملي لتعرف كيف تدخل في عملية تنقيةٍ للتراث المنقول إليها من المصادر المتنوعة لتحاكم كل مفرداتها بمنطق العقل المنفتح على الوحي في آفاقه الواسعة، لأن الامتداد في المنهج الانفعالي العاطفي السطحي قد يدخلنا في كهوف الضلال من حيث نريد الانفتاح على الهدى، وقد يدفع بنا للابتعاد عن خط الاستقامة في مناقشة قضايا العقيدة أو الشريعة التي قد يخضع فيها الجو العام، للخوف من تحريك بعض الأفكار المطروحة في ذهنه العام، على أساس الخوف من غضبة العوام الذين قد يفقدون ثقتهم بالأشخاص الذين يثيرون أفكاراً نقديةً إزاء بعض الأمور المتصلة بالعاطفة العامة تجاه بعض قضايا التاريخ أو قضايا العقيدة في بعض تفاصيلها، أو قضاياالشريعة في بعض أحكامها.

إن التأكيد على العقل المنفتح على الوحي يفرض علينا إعادة النظر في الكثير من أساليب الاستدلال لتجديدها أو لتجديد بعض الأفكار الناشئة منها، حتى نبقى في مستوى التحدّي الكبير الذي يفرضه انفتاح الحركة الثقافية في العالم الإسلامي وغيره على كل قضايا الإسلام في العقيدة والشريعة والمنهج، وعلى كل خصوصيات المنهج الفكري الشيعي في الأمور التي يختص بها الشيعة، الأمر الذي يفرض نشاطاً غير عاديّ من قِبَل المفكرين الإسلاميين في إدارة الحوار المفتوح حول هذه الأمور في الداخل، ومواجهة الأفكار المضادّة في الخارج.

* * *

الرسالة في منهج التفسير الموضوعي

وقد نلاحظ في رسالة العقل هذا توجيهاً للمفسرين الإسلاميين للسير على منهج التفسير الموضوعي للقرآن من أجل استخراج المفاهيم الإسلامية

من القرآن بشكلٍ متكاملٍ بحيث يكتشف الخط العام للموضوع، ثم يتحرك في الخطوط التفصيلية في نطاق النماذج الحيّة المتحركة في الواقع، ممّا يوحي بتحرك الفكرة في ساحة التطبيق كما نرىٰ فيها تأكيداً على الانفتاح على كثير من الأمور الفرعية المتعلقة بالموضوع. . وهذا هو المنهج الذي يعمل على توسيع الأفق الفكري للإنسان المسلم بحيث يعمل على الجمع بين المضمون الداخلي للفكرة، وبين الإيحاء الخارجي لحركتها في الواقع، فقد استنطق الإمام كل آيةٍ ورد فيها الحديث عمّن يعقلون وعمن لا يعقلون في النتائج الإيجابية للفريق الأول، وفي النتائج السلبية للفريق الثاني، ليدفع بالحديث إلى آفاق الوعي الإنساني ليؤكد على أن الإنسان العاقل هو الإنسان الذي ينفتح على كل مواقع الاختبار المميّز للفكرة الصالحة، وللقول الأحسن باعتبار أن ذلك هو مظهر الهداية الإلٰهية في حركة العقل في الداخل. . ولينطلق، بعد ذلك، ليؤكد موقع العقل كحجةٍ على الإنسان في قناعاته، وكمنطلقٍ للانفتاح على الأدلة المفتوحة على كل ما في كتاب الكون من آيات منثورة في آفاق السماء والأرض ليكون هو الأساس لاستخلاص النتائج في معرفة اللّٰه في مواقع وحدانيته وعظمته التي لا تقف عند حد، وليطوف الإنسان في المجالات التي يؤكد فيها العقل له كيف يركز خطواته على أرض صلبةٍ ثابتةٍ تتيح له السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة.

* * *

وقد لا يظهر من نص الرسالة كيف كان الإمام الكاظم يتحدث فيها، هل بطريقة الكتابة، أو بطريقة المشافهة الخطابية وهل كانت حديثاً يستهدف الموعظة من خلال إثارة الموضوع الذي يتحرك في أكثر من موقع من مواقع السلوك الإنساني، أو كان يستهدف التحليل الموضوعي بإسلوب الموعظة وقد لا يكون في تحديد ذلك كبير فائدة من حيث النتيجة العملية ولكنه قد يصل بنا إلى معرفة الأجواء التي كانت تسود الوضع التعليمي في حديث الإمام لتلاميذه وأصحابه، لا سيّما إذا كانوا من أمثال هشام بن الحكم الذي كان يملك الثقافة الواسعة من الناحية الكلامية بحيث كان يمثّل الشخص

الذي يعتمد عليه الأئمة في محاورة الآخرين في مسألة الإمامة، فما هي المناسبة التي اقتضت هذا الحديث، وما هو الجوّ الذي كان يحكم الموقف؟

هذه علامات استفهام لم نجد لها جواباً فيما اطّلعنا عليه من سيرة الإمام المكتوبة، سوى النص الذي ورد في الأنوار البهية عن السيد ابن طاوس رحمه اللّه في اهتمام أصحاب الإمام بما يسمعونه منه وكتابتهم لكل كلمةٍ يقولها في مجلسه.

* * *



لقطات من كلمات الإمام الكاظم (ع)

وهناك حديث مروي عن الإمام موسىٰ الكاظم (ع) ذكره صاحب أعيان الشيعة نقلاً عن كتاب كشف الغمة قال:

وجدت علم الناس في أربع:

أولها: أن تعرف ربك.

الثانية: أن تعرف ما صنع بك.

الثالثة: أن تعرف ما أراد منك.

الرابعة: أن تعرف ما يخرجك عن دينك.[1].

* * *

ويحاول هذا الحديث أن يلخّص مواقع الثقافة الدينية التي تعمّق للمسلم معرفته العقيدية، وتوسّع لديه آفاقها، وتحقّق المناعة الفكرية ضد الانحراف.

فلا بد في النقطة الأولى من معرفة اللّه في آفاق عظمته، وفي حقائق الألوهية التوحيدية في عمقها الفكري، وفي رحابتها الوجدانية ليتأكد الإيمان به في العقل وفي القلب وفي الحياة من خلال الحضور الإلٰهي في كل موقع من مواقع الوجود، وهيمنته المطلقة على كل شيء، حتى لا يغيب عن خاطر الإنسان في شيءٍ، ولا يبتعد عن حركته في أيّ قولٍ أو فعل.

وإذا كانت معرفة اللّه تعني المعرفة الشاملة التي تشتمل على كل مواقع حكمة اللّه وتدبيره، فإن إرسال الرسل واليوم الآخر يدخلان في ذلك من خلال اقتضاء الحكمة والتدبير ذلك.

أمّا النقطة الثانية، فإنها تتصل بالانفتاح على اللّه في دائرة النعمة الواسعة التي تتسع باتساع الكون في كل الظواهر والأشياء التي تتصل بحماية وجود الإنسان في نموّه الجسدي والعقلي والحركي وفاعليته في بناء الحياة على الأسس القوية، والخطط المتوازنة، فيما أراده اللّه منه، مما يجعله مشدوداً إلى اللّه في كل شيء من خلال الحاجة المطلقة والفقر الشامل الأمر الذي يثير فيه الشعور بضرورة التفكير في الطريقة الفضلى التي تربطه من ناحيةٍ عملية في مواقع الشكر الرحبة بالإضافة إلى ما يربطه به من الناحية التكوينية.. وبذلك تتحوّل هذه المعرفة إلى عنصر حيّ يمنح الإنسان فكراً موسوعياً علمياً في كل مفردات النعم في الحياة من جهة، كما يمنحه حركةً في الانفتاح على اللّه في موقع الشكر والعبادة من جهة أخرى.

وأما النقطة الثالثة، فتتمثل في معرفة الشريعة بكل دقائقها وتفصيلاتها المتصلة بالخط العام للسلوك الإنساني في كل القضايا العامة والخاصة في حياته ليتعرّف، من خلال ذلك، ما هي أوامر اللّه ونواهيه على مستوى النظرية والتطبيق معاً.

وأمّا النقطة الرابعة، فتتحرك المعرفة من أجل صيانة الإنسان عن الخط المنحرف، أو الخط المضادّ فيما يمكن أن يتعرض له المسلم من تضليلٍ أو انحراف بفعل التيارات الفكرية المتنوعة التي تختلف عن الفكر الإسلامي في الجذور أو في بعض التفاصيل لا سيّما إذا كان من الممكن تحريكها بطريقةٍ مدروسةٍ مضللةٍ بحيث يختلط فيها الحق بالباطل من حيث الصورة فيقع الاشتباه والانحراف.. الأمر الذي يجعل من المعرفة أمراً حيوياً على مستوى سلامة العقيدة في الخط الخاص والعام.

❊ ❊ ❊

وقد يكون إغفال التربية الإسلامية لاستكمال هذه العناصر من المعرفة في تربية الأجيال الإسلامية، هو المسؤول عن كثيرٍ من حالات الاهتزاز العقيدي، ، أو الانحراف الفكري لفقدان الخط الفاصل بين الحق والباطل من جهة، ولابتعاد الإنسان في وعيه للّه عن وعيه لعلاقة حياته في مفرداتها التفصيلية باللّه أو في محدودية معرفته بالإسلام في شريعته، أو في فقدانه لها بالكامل.

وربما كان من المفيد لنا أن ندرس الاقتراح باتخاذ هذه الأمور في المعرفة الإسلامية أساساً في المنهج التربوي للإسلام كما لا بد لنا من إدخال العنصر الرابع في صلب الدراسات الفكرية لطلاب العلوم الدينية في الحوزات العلمية الإسلامية فأننا نجد الكثيرين منهم يجهلون التيارات الفكرية المادية أو الفلسفات الإلحادية، أو النظريات السياسية المخالفة للإسلام، مما يجعلهم غير دقيقين في التعرف على ملامح العقيدة أو في مواجهة التحديات المتحركة من خلال الكفر والضلال الأمر الذي قد يجعلهم بعيدين عن المستوى المميز في الدعوة إلى الإسلام، وفي تقديم الحجة على الآخرين في ساحات الصراع.

***

لا تكن إمعة

جاء في الحديث عنه فيما أوصى به أحد أصحابه الفضل بن يونس قال: أبلغ خيراً وقل خيراً ولا تكن إمّعة قال: ما الأمّعة؟

قال لا تقل: أنا مع الناس وأنا كواحد من الناس، أن رسول اللّه (ص) قال: «يا أيها الناس إنما هما نجدان[1] نجد خير ونجد شرّ فلا يكن نجد الشرّ أحبَّ إليكم من نجد الخير».

***

(١) النجد الطريق الواضح المرتفع.

وهـذا خطّ واضحٌ في تحـديد المـوقف الحاسم من خـلال الـدراسـة العميقة الواعية المنفتحة على الـواقع كله من جميـع جوانبـه لتكون عمليـة الاختيار ناتجةً من استعراض كل الاحتمالات، حيث يتحدّد الرأي الشخصي للإنسان بالمستوى الذي يتحمل فيه مسؤولية كـل النتائـج المترتبـة عليه من خلال قناعاته المبنية على الفكر المسؤول فلا ينبغي للإنسان بل لا يجـوز له أن يخضع في موقفه للجوّ العام من حوله ليكون مجرد صدىً للآخرين فيما يقولونه أو فيما يتخذونه من الموقف، لأن في ذلك إنتقاصاً من كرامة عقله. وحطاً من منزلة إنسانيته، وابتعاداً عن إحتـرام ِ إرادته، إذ لا معنى لخضـوع الإنسان لقرارات الآخرين الذين لا يملكون العصمة في فكرهم من دون أن يعرف الأساس في هذا القرار أو في هذا الموقف ليكـون على بيّنةٍ من أمـره عندما يكون على بيّنة من الجذور الفكرية لذلك الأمر.

وكيف يأمن لهؤلاء الذين قد تتحكم فيهم شهواتهم، وقد تحكم عليهم نقاط ضعفهم، وقد ينطلقون فيها من مواقع انفعاليةٍ عاطفيةٍ، ممّا قد يعّرض القضايا التي ترتبط بهم للخطر عندما يكون القرار الصادر منهم شراً وفسـاداً وخللاً في مواقع الحق.

إن الإسلام، فيما يتحدث به الإمام عليه السلام، لا يريد للإنسان أن يتهرب من مسؤولة فكره في تحديد موقفه، وفي تأكيد قناعاته بل يريد له أن يحرّكه في كلِ موقعٍ من مواقع الحركة في حياته.. فإن اللّه لم يجعـل فكر الآخرين عذراً له إذاً كان في موقع الخطأ ما لم يكونوا في مستوى العصمة، أو في مستـوى الثقافـة الاجتهاديـة التي تُلزم الآخرين أو تجيـز لهم الالتـزام بمضمونها الفكري والعلمي، هذا من جهة..

ومن جهـة أخرى، فـإن اللّه يريـد للإنسـان أن يربيّ عقله كمـا يربيّ جسمه، حتى يستطيع بعقله أن يتحرك في المواقع القيـادية للحيـاة، ليمنح الساحة من إبداعاته، وليفتح لها أبواب التقدم والتطور فيمـا يمكن أن ينتجه فكره.

وكما أراد للناس أن يفكّروا مع قياداتهم، ومع الناس الآخرين فقد أراد

للقيادة أن تفكر مع الناس وذلك فيما نستوحيه من قوله تعالى لنبيه محمد(ص)﴿**وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله**﴾.

فإن الظاهر أن المقصود من ذلك هو تعويد النبي لأصحابه بأن يفكروا معه فيما يطرحه معهم من الأمور العامة أو الخاصة ليعتادوا على تحريك فكرهم حتى يتعلموا كيف يكونون قادةً للفكر في المستقبل.

إن الإسلام يريد للأمة كلها أن تفكر بحسب الحجم الثقافي الذي يملكه الأفراد لأن التّدرب على إثارة الفكر في العقل يعطي القوة، والنموّ، والانفتاح فيما يغني التجربة العامة للأمة ويحوّلها إلى طاقاتٍ متحركةٍ تتنامى وتتلاقح وتنتج الكثير من عناصر الخير والحياة، ويكشف لنا عن كثيرٍ مما لا نستطيع اكتشافه في حالات السكون والركود.

* * *

وقد وضع الإمام الكاظم (ع) العنوان العام للمسألة في الدعوة إلى إبلاغ الخير للناس، وإلى قول الخير في واقع حياتهم، مما يجعل القضية تحمل معنى المسؤولية في تحديد الخير في مواقعه في الحياة، مما لا يستطيع معرفته إلا من خلال الرجوع إلى القاعدة الفكرية التي يرتكز عليها عقله في حركته نحو اكتشاف المجهول.

وفي ضوء هذا، لا بد من أن يواجه الموقف على أساس أنه يملك الفكر المستقل الذي يتحرك بأصالة ليحدد النتائج فيما تتضمنه من الخير أو الشر. . فلا معنى لأن يقول أنا مع الناس فيما يتحركون به، وأنا كواحد من الناس فيما يتخذونه من موقف تماماً كما هي الورقة في مهبّ الريح، وكما هي الخشبة في مجرى التيار فإن أمثال هذا الشخص يعانون الضعف الشديد للشخصية لأنهم لا يطيقون الانفراد بالموقف عن الناس، أو يخافون الوحشة في ذلك، أو يرفضون التعب في مسألة التفكير ولذلك فهم يتركون للآخرين أن يقرروا أو يفكروا أو يتخذوا المواقف، ويحددوا المواقع من دون اعتبارٍ لطبيعة أفكارهم وقراراتهم ومواقفهم، فيما يمكن أن يكون فيها من خير أو شرّ. . تماماً كما يقول الشاعر:

وما آنا إلاّ من غزيّة إن غوَتْ غويتُ وإن تُرشد غُزيّةُ أرشد

فقد رفض رسول اللّه (ص) ذلك من كل الناس، لأن الحياة في جميع ساحاتها تخطط لطريقين، طريق الخير وطريق الشر فلا بد للإنسان من أن يميز أحدهما عن الآخر ليلتزم طريق الخير الذي أراد اللّه منه أن يلتزمه، ويرفض طريق الشر الذي أراد له أن يرفضه، فلا يبقى حائراً بينهما، ولا يتخذ موقف اللاّمبالاة أو السلبية في التحديد من ذلك كله.

***

لا تنظر إلى تقييم الناس لك بل انظر إلى عمق الواقع عندك

وفي حديثٍ آخر رواه الكشي في رجاله عن حمدويه بن نصير قال: حدثني محمد بن عيسى بن عبيد عن يونس بن عبد الرحمن قال: قال العبد الصالح «والمراد به الإمام الكاظم»: يا يونس ارفق بهم فأن كلامك يدقّ عليهم قال: قلت: أنهم يقولون لي: زنديق، قال لي: وما يضرّك أن يكون في يدك لؤلؤة فيقول الناس هي حصاة، وما ينفعك أن تكون في يدك حصاة فيقول الناس أنها لؤلؤة [1].

وهذه الوصيّة تتحرك في المواقع التي يقف فيها المفكرون الإسلاميون أو الدعاة إلى اللّه، فيما يطلقونه من أفكار، وفيما يتحركون به من مواقف مما قد لا يرتاح الناس إليه، فيما لا يألفونه من أمور العقيدة أو الحياة فيخيل إليهم أنه زندقةٌ أو انحرافٌ وضلالٌ، لأنهم لم يأخذوا بالجذور العميقة للعقيدة، ولم يطّلعوا على الخط المستقيم في نظرة الإسلام إلى الحياة فكيف يتصرف هؤلاء المفكرون أو الذعاة أمام ذلك؟

هل ينسحبون من الميدان تاركين الناس في جهلهم وفي تخيّلاتهم وأوهامهم، أو يبقون على إصرارهم فيما يعتقدون وفيما يقررون مهما كانت النتائج؟

إن الإمام (ع) يريد لهم ـ فيما قاله ليونس ـ أن يرفقوا بالناس فيأخذوا

---

(١) رجال الكشي ص ٤١٣.

بأساليب البساطة ليقرّبوا لهم الفكرة بالطريقة التي تتناسب مع عقولهم بعيداً عن كل عناصر الإثارة التي تثير الحساسيات الخاصة على مستوى عقلية الجماهير المملوءة بالكثير من الأوهام والخيالات، مما يحتاج إلى الكثير من الجهد الفكري من أجل إزالته والسيطرة عليه، لأن المواجهة المباشرة، والإثارة العنيفة قد تزيد الموقف تعقيداً، وقد تثير عصبياتهم بطريقةٍ عدوانيةٍ وتعمّق ضلالهم، وتحوّلهم إلى شخصيات هائجة من مواقع الجهل والتخلف.

وهذا هو خط الحكمة في معالجة حالات الانحراف الجماهيري فيما تعيشه الجماهير من التصورات التي تمتزج فيها الحقيقة بالخرافة، واليقين بالوهم، مما يضيفونه من تقاليدهم وأوضاعهم بطريقة معقّدة.. فإن المسألة المطروحة هي أن نصل إلى قناعاتهم لا إلى إثارتهم، وربما كان ذلك مقتضياً لدراسة معمّقةٍ واقعيّةٍ للذهنية العامة للأمة، وللأفكار المطروحة في داخلها، وللوسائل العملية المؤثّرة في الانفتاح عليها، الأمر الذي يجعل الداعية معنيّاً بأن يبحث عن مفاتيح العقول والقلوب للأفراد والجماعات.

* * *

ويريد لهم ـ فيما قاله ليونس ـ أن لا يسقطوا أمام الكلمات القاسية فيما يرميهم به الجاهلون والمتخلفون، ولا يتعقدوا منها لينسحبوا من المسؤولية في الاستمرار على الخط وفي الثبات في صعيد المواجهة لأن الإنسان المؤمن لا يستعير ثقته بنفسه من خلال كلمات الناس عنه، ليبقى في موقف المترقب لما يقولونه عنه، ليقوَى أو يضعف تبعاً للكلمات الإيجابية أو للكلمات السلبية عنه، بل ينطلق في ثقته بنفسه من نظرةٍ موضوعيةٍ جادّة إلى كل العناصر الواقعية التي تمثل حجم طاقاته، فيما هو الكمّ والكيف، ليحكم لنفسه أو عليها تبعاً لذلك من دون ملاحظة لأي شيء خارج عن طبيعته الذاتية.. وبذلك يمكنه أن يحافظ على توازنه في جميع الحالات المحيطة به، فلا يغترّ بالكلمات التي تمنحه ضخامةً في الشخصية لا يملكها فيما يعرفه عن نفسه ولا يسقط أمام الكلمات التي تسلبه صفاته الحقيقية مما يملكه في وجوده.

وهـذا هو الخط العملي الـذي يمثّل القـوّة الحقيقية للمـوقف الثابت الواثق بنفسه المنفتح على الأهداف الكبيرة فيما هي المسيرة الإسلامية بعيداً عن كـل حـالات الاهتـزاز التي قـد يثيـرهـا الآخـرون من أعـداء الإسـلام والمسلمين، فيما يحاولون أن يحرّكوها في أجهـزة إعلامهم المعـادي الذي يستهدف إسقاط مستويات الأمة وإيجاد حالةٍ من فقـدان الثقة بقـدرتها على الثبات في مواجهة التحديات وذلك من خلال الإيحاء الدائم بنقاط الضعف التي يختـرعونهـا وبالإتهـامات التي يصـوغونهـا ويحركـونها كـذباً وافتـراءً، وبالعناوين المثيرة التي يضعونهـا على كثير من أوضـاع الأمة ممـا يمكن أن يخضع لأكثر من عنـوان، كما نـلاحظه في عنـاوين التعصب والتطرف التي يطلقونها على الإسلاميـين الحركييـن وفي عنوان الإرهاب الذي يحركونه في سلوك المجاهدين من أجل الحرية على خط الإسلام ضد المستكبرين الذين يضطهدون حرية الشعوب المستضعفة.

إن الإمام يقول لكـل العاملين والمجـاهدين: أُدرسـوا كل المعـطيات المتوفرة لديكم مما تملكـونه من حقـائق وحاولـوا أن تركّـزوا مسألـة التقويم للذات الفردية أو الجماعية بشكلٍ موضوعيّ واقعي لا يتأثر بالانفعالات التي تخضـع لتضخيم المـوقـع أو تقـزيمـه بفعـل بعض المؤثـرات الـداخليـة أو الخارجية.. الأمر الذي يضع المواقع والمواقف في نصابها الصحيح.

وإذا كان الإمام الكاظم عليه السلام يؤكد على العـاملين الإسلاميين أن لا يسقطوا عندما يقول الناس عما يملكـونه من اللؤلؤ الفكـري والروحي والعلمي، أنه حصى، وأن لا ينتفخوا غروراً عندما يقول الناس عن الحصىٰ الذي يملكونه أنه لؤلؤ، فلا بد أن يبقوا مع الواقع كيفما كان، وإذا كان هذا التأكيد موجهاً إلى الذات في أنفسهم، فأننا نستوحي منـه توجيهـاً إليهم في تقييم الآخرين من قياداتهم أو أتباعهم ليكون الحق هو الأساس، والعقل هو المنطلق، لا الباطـل الذي يتغـذى بالعـاطفة، ولا الانفعـال الذي يقـود إلى الضلال.

* * *

موقفه من القياس

جاء في الحديث عن الإمام موسى الكاظم (ع) ما رواه المفيد بسنده عن الحسن بن فضال عن أبي الفراء عن سماعة عن العبد الصالح: سألته فقلت: إن أناساً من أصحابنا قد لقوا أباك وجدك وسمعوا منهما الحديث فربما كان شيء يبتلى به بعض أصحابنا وليس في ذلك عندهم شيء يفتيه، وعندهم ما يشبهه، يسعهم أن يأخذوا بالقياس؟ فقال: لا ، إنما هلك من كان قبلكم بالقياس، فقلت له: لم لا يقبل ذلك؟ فقال: لأنه ليس من شيء إلا جاء في الكتاب والسنة (١).

إن هذا الحديث يوحي بأن رفض القياس كان بسبب عدم الحاجة إليه لشمولية الكتاب والسنة لكل ما يحتاجه الناس من الأحكام الشرعية في شؤون الحياة العامة والخاصة بحيث يمكنهم أن يجدوا فيها المعالجة الخاصة للقضايا الجزئية، والمعالجة العامة للقواعد الكلية المنفتحة على أكثر من موقع.. فيكون الرجوع إلى القياس رجوعاً إلى ما لا ضرورة له، بالإضافة إلى أنه لا يملك أساساً للحجية لأنه يعتمد على الظن الذي لا يغني من الحق شيأً، لا سيّما أن علل التشريع قد لا تكون واضحةً وضوحاً كلياً بالمستوى الذي يستطيع الإنسان أن يدرك معه أساس التشريع في هذا المورد بشكلٍ قطعي ليستنتج من ذلك حكم المورد الآخر الذي يشابهه، فقد يدرك الإنسان جانباً من المدرك ويغفل عن الكلية التي تزن الأمور بميزان دقيق، حيث يختلف الناس في الموضوع حسب الانطباعات الذاتية في فهمهم لأسرار الحكم والموضوع معا.

وفي ضوء هذا الحديث لا بد للمجتهد من التتبع في كل موارد الكتاب والسنة للتدقيق فيها لاستخراج الأحكام الشرعية من خلال القواعد العامة التي تشير إلى الحكم الشرعي سلباً أو إيجاباً، بحيث يكون الكتاب والسنة هما المصدران للتشريع دون غيرهما، حتى أن الذين يذكرون العقل والإجماع

---

(١) الاختصاص: ص ٣٨١ (نقلا عن مسند الإمام الكاظم ج ٢ ص ٧).

كمصدرين للحكم الشرعي، يؤكدون حجيتهما من حيث أنهما كاشفان عن الحكم الشرعي فيما يكتشفه العقل القطعي من ملاكات الأحكام أو فيما يستلزمه الإجماع من قول المعصوم أو فعله أو تقريره. وقد تحدّث الإمام الكاظم حول هذا الموضوع بطريقة أكثر صراحة وذلك في حوار مع بعض أصحابه وذلك فيما رواه الكلبي عن علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى بن عبيد بن عبد الرحمن عن سماعة بن مهران عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: قلت: أصلحك اللّه إنّا نجتمع فنتذاكر ما عندنا فلا يرد علينا شيء إلاّ وعندنا فيه شيء مسطّر وذلك مما أنعم اللّه به علينا بكم ثم يرد علينا الشيء الصغير ليس عندنا فيه شيء فينظر بعضنا إلى بعض وعندنا ما يشبهه فنقيس على أحسنه؟ فقال: وما لكم وللقياس إنما هلك من هلك من قبلكم بالقياس [1].

ثم قال: إذا جاءكم ما تعلمون فقولوا وإن جاءكم ما لا تعلمون فها، وهوى بيده إلى فيه، ثم قال: لعن اللّه أبا فلان كان يقول: قال علي وقلت أنا وقالت الصحابة وقلت، ثم قال: أكنت تجلس إليه؟ فقلت: لا ولكن هذا كلامه، فقلت: أصلحك اللّه أتى رسول اللّه الناس بما يكتفون به في عهده؟ قال: نعم وما يحتاجون إليه إلى يوم القيامة، فقلت: ضاع من ذلك شيء؟ قال: لا هو عند أهله [2].

فنحن نلاحظ أن المسألة هي عدم وجود فراغ في الشريعة يدعو إلى اللجوء للقياس.. وإذا كان الناس لا يجدون لديهم مصدر ذلك فإن الأساس في هذا الشعور بالفراغ هو ابتعادهم عن سؤال أئمة أهل البيت الذين يملكون علم ذلك كله، ومعارضتهم لهم فيما يقولون وفيما يروون عن النبي (ص).. وقد قال في حديث آخر يوضح فيه المسألة فيما رواه عثمان بن عيسى قال: سألت أبا الحسن موسى عن القياس قال: ما لكم والقياس إن اللّه لا يسأل كيف أحل وكيف حرم [3]. وفي هذا دلالةٌ على عنصر التعبد في فهم الحكم

---

(١) الكافي ج ١ ص ٥٧.
(٢ و٣) الكافي: ج ١/٥٧.

الشرعي وعدم النفاذ إلى عمق العلل الواقعية من خلال الظنون السطحية.

وقد عالج الإمام الكاظم (ع) هذه المسألة في حوار جرى بينه وبين أبي يوسف صاحب أبي حنيفة في مسألة تظليل المحرم الذي يلتزم أئمة أهل البيت (ع) بحرمته على المحرم في حال السير، ويجوّزونه له في حال النزول، بينما يلتزم أهل السنة بجواز ذلك له مطلقاً وقد روى ذلك الكليني في الكافي عن عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن جعفر بن المثنى الخطيب عن محمد بن الفضيل وبشر بن إسماعيل قال: قال لي محمد (بن إسماعيل) ألا أسرّك يا بن مثنى؟ قال: قلت: بلى وقمت إليه، قال: دخل هذا الفاسق آنفا فجلس قبالة أبي الحسن عليه السلام ثم أقبل عليه فقال له: يا أبا الحسن ما تقول في المحرم أيستظل على المحمل؟ فقال له: لا ، قال: فيستظل في الخبأ؟ فقال له: نعم، فأعاد عليه القول شبه المستهزىء يضحك فقال: يا أبا الحسن فما فرق بين هذا وهذا.

فقال: يا أبا يوسف إن الدين ليس بقياسٍ كقياسكم أنتم تلعبون بالدين، إنا صنعنا كما صنع رسول اللّٰه (ص) وقلنا كما قال رسول اللّٰه (ص): كان رسول اللّٰه يركب راحلته فلا يستظل عليها وتؤذيه الشمس فيستر جسده بعضه ببعض وربما ستر وجهه بيده وإذا نزل استظل بالخبأ وفيىء البيت وفيىء الجدار [1].

فنحن نلاحظ أن أبا يوسف نظر إلى المسألة من خلال أنَّ طبيعة الظل واحدة فإذا كان الإحرام يفرض جواز التظليل للمحرم عند النزول، فلا بد أن يكون الحكم كذلك حال السير، لوحدة الأساس في الحكم الشرعي بين الموردين.

ولكن الإمام الكاظم (ع) أرشده إلى دراسة المسألة من خلال المصدر الأساس للحكم الشرعي من فعل رسول اللّٰه (ص) الذي التزم بعدم التظليل في حال السير بالطريقة التي توحي بحرمته على المحرم، فلم يلجأ إلى

---

(١) الكافي ج ٤/ص ٣٥١.

الاستظلال بالمحمل أو بما يشبهه من الأغطية مع حاجته إلى ذلك لأن الشمس تؤذيه، بل كان يستر جسده بعضه ببعض وربما ستر وجهه بيده، بينما كان يتفيأ بالخبأ وفيء البيت والجدار عند النزول مما يوحي بحلّية ذلك، وأن المسألة ليست مسألة خصوصية التظليل في ذاته، بل هي - إلى جانب ذلك - خصوصية السير في اتجاه الغاية إلى اللّه، فيما هو الحج والعمرة، فكان اجتهاد أبي يوسف في المسألة اجتهاداً في مقابل النص في عمق المسألة، لأنه لم ينتبه إلى امتناع النبي من التظليل في حال السير، بل نظر إلى ممارسته له في حال النزول فابتعدت عنه جذورها.

وقد ورد في بعض الروايات أن الإمام موسى الكاظم سأل أبا يوسف عندما سأله عن الفرق بين التظليل للحرم في الركوب وفي النزول، فقال له: ما تقول في الطامث أتقضي الصلاة قال: لا ، قال: فتقضي الصوم؟ قال: نعم، قال: ولِمَ؟ قال: هكذا جاء فقال أبو الحسن: وهكذا جاء هذا.

وهذا هو الذي أراد أهل البيت أن يؤكدوه، وهو أن دين اللّه لا يصاب بالعقول، لأن العقول قد تدرك بعض الأمور ولكنها قدتغفل عن إدراك البعض الآخر مما يوحي بأن الحكم الشرعي لم يستكمل ملاكه بشكل دقيق وهذا ما نلاحظه في اختلاف الحكم في بعض الموارد المتشابهة في أكثر من وجه كما في الصلاة والصوم اللذين تجمعهما الناحية العبادية، ولكن حكمهما في القضاء مختلف، وهكذا أمر اللّه في كتابه بالطلاق وأكد فيه شاهدين ولم يرض بهما إلا عدلين، وأمر في كتابه بالتزويج وأهمله بلا شهود. وربما نستفيد من الحديث الأول الذي يؤكد عدم الحاجة إلى القياس لوفاء الكتاب والسنة بجميع الأحكام، إن الأمر لو لم يكن كذلك بحيث كانت هناك حاجة ملحة إلى معرفة الحكم الشرعي لبعض الأمور ولم يكن لدينا طريقٌ إلى معرفته من الكتاب أو السنة، فإن من الممكن أن نلجأ إلى القياس أو نحوه من الطرق الظنية في حال الانسداد انطلاقاً من أن الاعتماد على الطرق الظنية العقلائية أو الشرعية كان مرتكزاً على الحاجة إليها لإدارة شؤون الحياة العامة للناس بحيث لولاها لاختل نظام حياتهم لأن العلم - وحده - لا يكفي في

ذلك، ولكننا قد لا نحتاج إلى ذلك لأن في القواعد العامة كفاية، ولأن في توسعة الاستظهار بإلغاء الخصوصية التي تجمّد الحكم في موردٍ خاص من جهة الفهم العرفي الذي لا يجد للخصوصية أساساً في الحكم ونحو ذلك.

إنها ملاحظات سريعة نثيرها أمام هذا الحديث، فيما نريد إثارته من ملاحظات لا بد للبحث الأصولي من أن يتوفر على تدقيقها بشكلٍ أكثر دقةً وتركيزاً والله العالم..

***

كيف نعالج التشاؤم

جاء في الفقيه، فيما رواه محمد بن علي بن الحسين بإسناده عن سليمان بن جعفر الجعفري عن الحسن موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام قال: الشؤم للمسافر في طريقه في خمسة: الغراب الناعق عن يمينه، والكلب الناشر لذنبه، والذئب العاوي الذي يسوي في وجه الرجل وهو مقع على ذنبه، ثم يعوي، ثم يرتفع، ثم ينخفض ثلاثا، والظبي السانح عن يمين إلى شمال، والبومة الصارخة، والمرأة الشمطاء تلقى فرجها، والأتان العضباء يعني الجدعاء، فمن أوجس في نفسه منهن شيئا فليقل: اعتصمت بك يا رب من شرّ ما أجد في نفسي فاعصمني من ذلك، فيعصم من ذلك [1].

***

إن الظاهر من هذا الحديث، أن الإمام لا يريد أن يؤكد وجود حقيقة للتشاؤم في هذه الأمور، باعتبار أنها نذيرٌ طبيعي للشؤم في خصائصها الذاتية بل يريد أن يشير إليها، من حيث الحالة الشعبية العامة الجارية على التشاؤم بها، فيما يرونه فيها من خصائص معينة في طبيعتها، أو فيما غلب العادة عندهم في مصاحبتها لبعض حالات الشؤم، ولو بطريق الصدفة، مما جعل تصوّرها مقارناً لاستحضار صورة الشؤم معها..

---

(١) الفقيه ج ١ ص ٩٦.

ولمّا كان التشاؤم غريباً عن الذهنية الإسلامية المنفتحة على اللّه من موقع الثقة به والتوكل عليه، فلا بد من أن يرجع الإنسان المسلم أمام هذه الأشياء، إلى إيمانه باللّه، فلا يهزه الخوف، أو يسقطه التطيّر، ولا يتجمّد في مشاريعه العملية من سفرٍ أو غيره تحت تأثير ذلك بل يعمل على إن يقوم بطريقةٍ إيحائيةٍ، في الإيحاء لنفسه بأن هذه الأمور مهما كانت تحمل في صورتها أو طبيعتها، من التهاويل المخيفة، فإن اللّه الذي خلقها يملك أمرها، كما يملك أمر الإنسان في جميع قضاياه ولذلك فلا بد من مواجهة الموقف بالتحدي العنيف للخوف في حركة المشاعر بالاعتصام باللّه، الذي يعصم عباده المؤمنين من كل شر. . ويؤكد الإمام الكاظم، أن اللّه يعصمه من ذلك، فيُلقي في نفسه الشعور العميق بالقوة ويثير في موقفه الثبات بالثقة. . ويدفع عنه في حركة الأوضاع المحيطة به كل سوء.

وقد نلاحظ في التدقيق في التعبير، قول الإمام، فمن أوجس في نفسه منها شيئاً أن المسألة تدخل في نطاق المشاعر النفسية التي قد تتحرك نتيجة التربية الذاتية القائمة على أساس التقاليد الشعبية التي يلتصق بها الإنسان في مشاعره وخطواته العملية بشكل لا شعوري، بحيث يختزن تأثيراتها في داخله، عفوياً، من دون أيّة محاكمةٍ عقليةٍ، أو تفكيرٍ موضوعيّ. . وهذا هو الذي يؤكد المعنى الذي قدمناه، من عدم ارتباط المسألة بالواقع. . مما يجعل للمعالجة النفسية الإيمانية دورها الكبير لأن القضية ليست قضيةً فكريةً لتعالج بالأسلوب الفكري لأن الناس لا تعيش هذا الأفق في ارتباطها بهذه الأمور، بل هي قضيةٌ نفسيةٌ لا بد من معالجتها بالوسائل النفسية المتصلة بالعمق الإيماني في العقيدة باللّه القادر على كل شيء، والمهيمن على كل شيء. . وهذا هو الذي نلاحظه في الحديث الشريف الذي يؤكد على أن «كفارة الطيرة التوكل [1]» وعلى أن الطيرة من الأمور التي تختزنها الذات فيما تختزنه من عناصر التأثر بكل ما حولها من التهاويل الناشئة من

(١) الروضة ص ١٩٨.

ضغط الواقع، أو من التصورات الشعبية العامة التي تلقي ظلالها عليه.. وذلك في الحديث الشريف الذي يقول ثلاث لم يعرفها نبي، وعدّ منها الطيرة «وأراد للإنسان أن يمضي عند عروض الطيرة له، فلا يتوقف أمام مشاعر الخوف التي تتحرك في داخله في معها».

ولعل هذا هو ما نستوحيه من الحديث المروي عن الإمام جعفر الصادق (ع) قال أبو عبد اللّه (ع) الطيرة على ما تجعلها إن هونتها تهونت، وإن شددتها تشددت، وإن لم تجعلها شيئا لم تكن شيئا [1]. والحديث المروي عن أبي الحسن الثاني (الإمام الرضا (ع) (فيما رواه في الفقيه قال: كتب بعض البغداديين إلى أبي الحسن الثاني «عليه السلام» يسأله عن الخروج في يوم الأربعاء لا يدور، فكتب «عليه السلام»: من خرج يوم الأربعاء لا يدور، خلافاً على أهل الطيرة وقي من كل آفة، وعوفي من كل عاهة، وقضى اللّه له حاجته [2].

إن الفكرة التي تحكم كل هذه الأحاديث هي أن التطير لا ينطلق من واقع موضوعي في الأمور التي يتطيّر الناس منها، بل هناك عاداتٌ معينةٌ تحوّلت إلى سلوك بشري عام، وإلى أوضاع نفسيةٍ داخليةٍ صعبةٍ، فلا بد من مواجهتها بالموقف المضاد الذي يمثل صدمةً قويةً للمشاعر، وبالوسائل الإيمانية التي تفتح قلب الإنسان على مواقع الثقة باللّه في كل شيء، والتوكل عليه في كل أمر..

وفي ضوء ذلك نستطيع أن نواجه الأفكار التي أثارتها بعض الأحاديث في التأكيد على نحوسات الأيام والأبراج ونحوها لنخضعها للقاعدة العامة التي تنفي التطير من الأساس كسلوك عام، وتوجّه الإنسان المسلم إلى عدم التوقف أمام كل الأوضاع والأزمان التي تحمل في داخلها بعض التهاويل الشعورية من خلال العادات الشعبية المتخلفة.

---

(١) الروضة ص ١٩٧.
(٢) النقية ج ١ ص ٩٥.

إننا نريد أن نؤكد على ذلك، لأن الطريقة التي يثير فيها الأسلوب الفقهي، مسألة المكروهات في باب السفر وفي أبواب الأعمال العادية المتعلقة بأوضاع الأنسان العامة والخاصة، قد يؤدي إلى الكثير من الشلل والجمود على المستوى العملي بحيث تتعطل مسيرة الحياة العامة للإنسان فتؤدي إلى كثير من الأضرار النفسية والاجتماعية والاقتصادية. . وقد تنعكس في بعض الحالات على الأوضاع السياسية عندما تتحوّل الأمة إلى أمّةٍ خائفةٍ من الزمن في نشاطاتها العامة والخاصة.



مناظرته مع الخلفاء



لقد روى كتاب سيرة الإمام الكاظم عليه السلام بعض الأحاديث فيما كان يجري بينه وبين هارون الرشيد من مناظرات في بعض الأمور التي تمثل بعض الخلافات بين العلويين والعباسيين في القضايا المتصلة بالعلاقة برسول اللّه، وفي القضايا الأخرى القريبة من ذلك.

ولدى التدقيق في هذه الأحاديث نجد في داخلها بعض الخلل في مضمونها الذاتي وفي إيحاءاتها السلبية فيما يتعلق بالإمام الكاظم فيما هي قضية الضعف في شخصيته أمام الرشيد بحيث تتحول المسألة إلى حالة الخوف الشديد الضاغط على الموقف، بما لا يتناسب مع الصلابة التي تتميز بها شخصيّته أمامه من خلال، مواقف أخرى.

إننا ندعو إلى قراءةٍ جديدةٍ لأمثال هذه الأحاديث التي قد لا تحمل صفة الصحة في إسناد الكثير منها، إن لم يكن كلها، والدخول في تقييمٍ جديدٍ لمضمونها الفكري في طبيعة التقية التي كان يأخذ بها أئمة أهل البيت وهل كانت تصل إلى مثل هذا المستوى من الإحباط النفسي الذي قد يسيء إلى الصورة الإسلامية المشرقة التي نقدّمها لأجيالنا عنهم، لأننا معنيّون بذلك من خلال حركة الخط الإسلامي في مضمون التقيّة التي قد تتدخل في إسقاط الكثير من المواقف المتحدية للظلم والظالمين تحت عنوان شرعية التقية، لا سيما إذا كانت المسائل التي تتضمنها مما لا صلة لها بالجانب الثوري الذي قد يخيّل للبعض أن لا مجال للتقية فيه لأن المسألة تدخل في النطاق

الاجتهادي العام في الدائرة الاجتهادية الواسعة التي كان يختلف حولها المسلمون وقد نلاحظ في هذا المجال، أن تاريخنا الشيعي قد يكون معنيّاً بإبراز مسألة ظلامة أهل البيت بالدرجة التي تجعله يهتم بكل روايةٍ يؤكد مضمونها شيئا من ذلك بقطع النظر عن صحتها التوثيقية وعدم صحتها.

* * *

إننانقدم هذه الرواية من روايات الاحتجاج الدائر بين الإمام موسى بن جعفر (ع) وبين هارون الرشيد في عرضٍ تقييميٍ نقديّ لنأخذ نموذجاً حياً من ذلك كله.

* * *

جاء في بحار الأنوار، (نقلا عن كتاب الاختصاص) عن أبي الوليد عن أحمد بن إدريس عن محمد بن إسماعيل العلوي قال: حدثني محمد بن الزبرقان الدامغاني قال: قال أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: لمّا أمر هارون الرشيد بحملي دخلت عليه فسلمت فلم يرد السلام ورأيته مغضبا فرمى إلي بطومار فقال: اقرأه فإذا فيه كلام، قد علم اللّه عز وجل براءتي منه، وفيه أن موسى بن جعفر يجبى إليه خراج الأفاق من غلاة الشيعة ممن يقول بإمامته، يدينون اللّه بذلك، ويزعمون أنه من فرض عليهم إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها ويزعمون أنه لم يذهب إليه بالعشر ولم يصلّ بإمامتهم ولم يحج باذنهم ويجاهد بأمرهم ويحمل الغنيمة إليهم، ويفضّل الأئمة على جميع الخلق ويفرض طاعتهم مثل طاعة اللّه وطاعة رسوله فهو كافر حلال ماله ودمه.

وفيه كلام شناعة، مثل المتعة بلا شهود، واستحلال الفروج بأمره ولو بدرهم، والبراءة من السلف ويلعنون عليهم في صلاتهم ويزعمون أن من لم يتبرأ منهم فقد بانت امرأته منه ومن آخر الوقت فلا صلاة له لقول اللّه تبارك وتعالى: ﴿وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّا﴾ (١)

(١) سورة مريم/الآية: ٥٩.

يزعمون أنه واد في جهنم والكتاب طويل وأنا قائم أقرأ وهو ساكت، فرفع رأسه وقال: اكتفيت بما قرأت فكلّم بحجتك بما قرأته.

قلت: يا أمير المؤمنين والذي بعث محمدا بالنبوة ما حمل إليّ أحد درهما ولا دينارا من طريق الخراج لكنا معاشر آل أبي طالب نقبل الهدية التي أحلها اللّه عز وجل لنبيه (ص) في قوله: «**لوأهدي لي كراع لقبلت، ولو دعيت إلى ذراع لأجبت**»، وقد علم أمير المؤمنين ضيق ما نحن فيه، وكثرة عدونا وما منعنا السلف من الخمس الذي نطق لنا به الكتاب فضاق بنا الأمر وحرمت علينا الصدقة وعوضنا اللّه عزّ وجلّ عنها الخمس واضطررنا إلى قبول الهدية وكل ذلك مما علمه أمير المؤمنين، فلما تم كلامي سكت.

ثم قلت: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لابن عمه في حديث عن آبائه عن النبي (ص) فكأنه اغتنمها، فقال: مأذون لك، هاته، فقلت: حدثني أبي عن جدّي يرفعه إلى النبي (ص) إن الرحم إذا مسّت رحما تحركت واضطربت، فإن رأيت أن تناولي يدك، فأشار بيده إلي. ثم قال: أدن، فدنوت فصافحني وجذبني إلى نفسه ملياً ثم فارقني وقد دمعت عيناه، فقال لي: اجلس يا موسى، فليس عليك بأس، صدقت وصدق جدك وصدق النبي (ص) لقد تحرك دمي واضطربت عروقي وأعلم أنك لحمي ودمي وأن الذي حدثتني به صحيح وإني أريد أن أسألك عن مسألة فإن أجبتني أعلم أنك صدقتني وخليت عنك ووصلتك، ولم أصدّق ما قيل فيك، فقلت: ما كان علمه عندي أجبتك فيه.

فقال: لم لا تنهون شيعتكم عن قولهم لكم يا بن رسول اللّه وأنتم ولد علي وفاطمة إنما هي وعاء، والولد ينسب إلى الأب لا إلى الأم؟

فقلت: إن رأى أمير المؤمنين أن يعفيني من هذه المسألة فعل فقال لست أفعل أو أجبت فقلت: فأنا في أمانك أن لا يصيبني من آفة السلطان شيء؟ فقال: لك الأمان قلت أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم بسم اللّه الرحمن الرحيم﴿**ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل**

ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى﴾ [1] فمن أبو عيسى؟ فقال: ليس له أب إنما خلق من كلام الله عز وجل وروح القدس فقلت: إنما أُلحق عيسى بذراري الأنبياء من قبل مريم وألحقنا بذراري ألأنبياء من قِبَل فاطمة لا من قبل علي (ع) فقال: أحسنت أحسنت يا موسى زدني من ذلك. فقلت: اجتمعت الأمة برّها وفاجرها أن حديث النجراني حين دعاه النبي (ص) إلى المباهلة لم يكن في الكساء إلا النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين فقال الله تبارك وتعالى: **﴿فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾**[2] فكان تأويل أبناءنا الحسن والحسين ونساءنا: فاطمة وأنفسنا علي بن أبي طالب فقال: أحسنت.

ثم قال: أخبرني ليس للعم مع ولد الصلب ميراث، فقلت: أسألك يا أمير المؤمنين بحق الله ورسوله أن تعفيني من تأويل هذه الآية وكشفها، وهي عند العلماء مستورة فقال: إنك ضمنت لي أن تجيب فيما أسألك ولست أعفيك فقلت: فجدّد لي الأمان فقال: قد أمنتك فقلت: إن النبي (ص) لم يورّث من قدر على الهجرة ولم يهاجر، إن عمي العباس قدر على الهجرة فلم يهاجر وإنما كان في عداد الأسارى عند النبي (ص) وجحد أن يكون له الفداء، فأنزل الله تبارك وتعالى على النبي يخبره بدفن له من ذهب فبعث عليا عليه السلام فأخرجه من عند أم الفضل وأخبر العباس بما أخبره به جبرئيل عن الله تبارك وتعالى، فأذن لعلي وأعطاه علامة الذي دفن فيه فقال العباس عند ذلك: يا بن أخي ما فاتني منك أكثر وأشهد أنك رسول رب العالمين.

فلما أحضر علي الذهب فقال العباس: أفقرتني يا بن أخي فأنزل الله

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٤ ـ ٨٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

تبارك وتعالى: ﴿أن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم﴾[1] وقوله: ﴿والذين أمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾[2] ثم قال: ﴿وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر﴾ [3] فرأيته قد اغتمّ.

ثم قال: أخبرني من أين قلتم أن الإنسان يدخله الفساد من قبل النساء لحال الخمس الذي لم يدفع إلى أهله فقلت: أخبرك يا أمير المؤمنين بشرط أن لا تكشف هذا الباب لأحد ما دمت حيا، وهذه مسألة لم يسألها أحد من السلاطين غير أمير المؤمنين قال: ولا تيم ولا عدي ولا بنوا أمية ولا أحد من آبائنا قلت: ما سئلت ولا سئل أبو عبد الله جعفر بن محمد عنها قال: فإن بلغني عنك أو عن أحد من أهل بيتك كشف ما أخبرتني به رجعت عما أمنتك فقلت: لك عليّ ذلك.

فقال: أحببت أن تكتب لي كلاما موجزا له أصول وفروع يفهم تفسيره ويكون ذلك سماعك من أبي عبد الله، فقلت: نعم وعليّ عيني يا أمير المؤمنين قال: فإذا فرغت فارفع حوائجك، وقام، ووكل بي من يحفظني وبعث إليّ في كل يوم بمائدة سريّة فكتبت:

بسم الله الرحمن الرحيم أمور الدنيا أمران: أمر لا اختلاف فيه وهو إجماع الأمة على الضرورة التي يضطرون إليها والأخبار المجتمع عليها المعروض عليها كل شبهة، والمستنبط منها كل حادثة، وأمر يحتمل الشك والإنكار وسبيل استنصاح أهله الحجة عليه، فما ثبت لمنتحليه من كتاب مستجمع على تأويله، أو سنة على النبي لا اختلاف فيها أو قياس تعرف العقول عدله ضاق على من استوضح تلك الحجة ردّها، ووجب عليه قبولها، والإقرار والديانة بها وما لم يثبت لمنتحليه به من كتاب مستجمعٍ على تأويله

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٧٩.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.

أو سنة عن النبي (ص) لا اختلاف فيها، أو قياس تعرف العقول عدله، وسع خاص الأمة وعامها الشك فيه، والإنكار له، كذلك، هذان الأمران من أمر التوحيد فيما دونه إلى أرش الخدش فما دونه، فهذا المعروض الذي يعرض عليه أمر الدين، فما ثبت له برهانه اصطفيته وما غمض عنك ضوؤه نفيته، ولا قوة إلا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فأخبرت الموكّل أني قد فرغت من حاجته فأخبره فخرج، وعرضت عليه فقال: أحسنت هو كلام موجز جامع فارفع حوائجك يا موسى فقلت: يا أمير المؤمنين أوّل حاجتي إليك أن تأذن لي في الانصراف إلى أهلي، فأني تركتهم بائسين آيسين من أن يروني أبداً فقال: مأذون لك. ازدد؟ فقلت يبقي الله أمير المؤمنين لنا معاشر بني عمه، فقال: ازدد؟ فقلت: عليّ عيال كثير وأعيننا، بعد الله، ممدودة إلى فضل أمير المؤمنين وعادته فأمر لي بمائة ألف درهم وكسوة وحملني وردني إلى أهلي مكرما [1].

وقد نُقلت هذه القضية بروايات أخرى قد تختلف في بعض مضمونها زيادةً ونقصانا.

إننا نريد أن نتساءل عن هذه اللهجة المرعوبة التي يتحدث بها الإمام مع هارون الرشيد قبل إجابته له عن أيّة مسألة من هذه المسائل التي كانت من القضايا المثارة منذ تسلّم بني العباس الخلافة في سجال الصراع بين آل علي وآل العباس وقد تحدث عنها الشعراء في أسلوب عرض الاحتجاج لهذه الدعوة أو تلك. ثم ما معنى أن يطلب منه الإمام الأمان من أن لا يصيبه من آفة السلطان شيء، كما لو كان السلطان شخصاً آخر غيره، ثم ما معنى أن يأخذ الإمام العهد من الرشيد أن لا يخبر أحدا عن مسألة الخمس وتأثيره في الفساد من قبل النساء، وممن يخاف الرشيد إذا كان يقتنع بمنطق الجواب، وما هي المشكلة في أن هذه المسألة لم يسبق لها أن أثيرت من قبل الخلفاء السابقين، حتى أثارها الرشيد.

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٨ ص ١٢١ ـ ١٢٥.

ثم طريقة الإمام في تقديم حاجاته للرشيد وتواضعه الشديد له، ودعاءه له بالبقاء لإبناء عمه. . وأخيرا حديثه بأن أعيننا بعد اللّه، ممدودة إلى فضل أمير المؤمنين وعادته. .

إننا لا نجد في هذا منطق أئمة أهل البيت عليهم السلام، ولا نستطيع أن نعتبر التقية مبرراً له ما دام الكثير من هذا الكلام لا يخضع لأية ضرورة أمنية في الموقف في الوقت الذي يجعل الرشيد في الموقع الأعلى في نظرته لنفسه باعتبار أنه وليّ النعمة للإمام وللأمة، وفي طريقة تقييمه لشخصية الإمام، مما قد يأباه منطق الإمام الذي كان يوصي بعض أصحابه أن يقاطعوه حتى لا يحبوا بقاءهم في المدة القصيرة التي ينتظرون فيها خروج عطائهم إليهم، وكان يقف ليتحدى الرشيد في رده عليه، أمام قبر رسول اللّه (ص) عندما وقف ليخاطب النبي بقوله: السلام عليك يا أبه، في مقابل كلام الرشيد وخطابه للنبي بقوله السلام عليك يا ابن العم.

وإذا كنا نثير علامات الاستفهام الفكرية أمام مثل هذا الحديث فإننا ندعو إلى الكفّ عن التحدث به في الخطاب الديني الذي يوجهه الخطباء والمحدّثون إلى الناس لأنّ ذلك سوف يترك انعكاساً سلبياً على الذهنية العامة التي تتأثر بأمثال هذا المنطق لتعيش صورة الأئمة في نطاق المأساة لا في نطاق الحركة المعارضة في نطاق خط التغيير أو الثورة. . وبذلك قد تفقد الثورة شرعيتها في أذهان الناس إذا كان العلماء يعتبرون الشرعية للبعد عن حركة المواجهة عند أيّة بادرة للخطر حتى بهذا المستوى البسيط.

وربما عاش الناس الكثير من أفكار الضعف الروحي من خلال الأحاديث التي لا ترتقي إلى مستوى الحقيقة في السند والمتن لأن الذين يقرأونها لا يناقشونها لأنهم لا يريدون تحريك المناقشة في أمور لا تتضمن حكماً شرعياً، مما يمكن أن يتسامح فيها بما لا يتسامح في روايات الحكم الشرعي، لا سيّما إذا كان الموضوع موضوع إثارةٍ للظلامة، أو تحريك العاطفة في دائرة المأساة، وهذا هو الذي أوجب اتساع دائرة الوضع في الأحاديث كما أشرنا إلى ذلك في بداية هذه الدراسة. .

ونحن نرفض هذا المنطق، لأن القضية هي قضية تكوين الذهنية الإسلامية العامة في الجانب الفكري والروحي والعملي، مما يفرض أن تكون التصورات منطلقة من عمق الحقيقة في المضمون.. حتى يكون الفكر إسلامياً من خلال الفكر الإسلامي العميق، وحتى تكون الروح إسلامية في آفاقها وتطلّعاتها وحتى يكون الخط العملي خط الإسلام في الوسيلة والغاية.. فلا تكون القضية قضية أوهام تأخذ صورة الحقائق، أو موضوعات تأخذ شكل الثوابت.

وهذا هو السبيل لإعادة تأصيل المجتمع الإسلامي، وتخفيف المؤثرات المتنوعة التي شاركت في إدخال الكثير من الأمور الهامشية الوافدة علينا من أفكار أخرى، أو شعوب أخرى، بعيداً عن عمق الحقيقة الإسلامية.

* * *

ملاحظات في نص بعض الأحاديث



وقد نلتقي في بعض الأحاديث بصورة أخرى من المنطق المنسوب إلى الإمام الكاظم (ع) وهو ما رواه في الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبيه والعدة عن البرقي جميعاً عن محمد بن خالد عن خلف بن حماد رواه أحمد أيضاً عن محمد بن أسلم عن خلف بن حماد الكوفي قال: تزوج بعض أصحابنا جارية معصراً لم تطمث فلما افتضها سال الدم فمكث سائلاً لا ينقطع نحواً من عشرة أيام قال: فأروها القوابل، ومن ظنوا أنه يبصر ذلك من النساء فاختلفن فقال بعض: هذا من دم الحيض، وقال بعض: هو من دم العذرة[1].

فسألوا عن ذلك فقهاءهم مثل أبي حنيفة وغيره من فقهائهم فقالوا: هذا شيء قد أشكل والصلاة فريضة واجبة، فلتتوضأ ولتصلّ وليمسك عنها زوجها حتى ترى البياض فإن كان دم الحيض لم تضرها الصلاة، وان كان دم العذرة كانت قد أدّت الفريضة ففعلت الجارية ذلك.

---

(١) العذرة ـ البكارة.

وحججت في تلك السنة، فلما صرنا بمنى بعثت إلى أبي الحسن موسى بن جعفر (ع) فقلت: جعلت فداك أن لنا مسألة قد ضقنا بها ذرعاً فإن رأيت أن تأذن لي فآتيك فاسألك عنها فبعث إليّ: إذا هدأت الرجل، وانقطع الطريق فأقبِل إن شاء اللّه قال خلف: فرعيت الليل حتى إذا رأيت الناس قد قل اختلافهم بمنى توجهت إلى مضربه[1].

فلما كنت قريباً إذا بأسود قاعد على الطريق فقال: من الرجل؟ فقلت: رجل من الحاجّ فقال: ما اسمك قلت: خلف بن حماد فقال: ادخل بغير إذن فقد أمرني أن أقعد ههنا، فإذا أتيت أذنت لك، فدخلت فسلّمت فردّ عليّ السلام وهو جالس علي فراشه وحده، ما في الفسطاط غيره، فلما صرت بين يديه سألني وسألته عن حاله.

فقلت له: إن رجلاً من مواليك تزوج جارية معصراً لم تطمث، فلما افتضها فافترعها سال الدم، فمكث سائلاً لا ينقطع نحواً من عشرة أيام، وإن القوابل اختلفن في ذلك فقال بعضهن: دم الحيض وقال بعضهن دم العذرة فما ينبغي لها أن تصنع؟ قال: فلتتقِ اللّه، فإن كان من دم الحيض فلتمسك عن الصلاة حتى ترى الطهر وليمسك عنها بعلها، وإن كان من العذرة، فلتتقِ اللّه ولتتوضأ ولتصلّ ويأتيها بعلها أن أحب ذلك، فقلت له: وكيف لهم أن يعلموا مما هي؟ حتى يفعلوا ما ينبعي؟ قال: فالتفت يميناً وشمالاً في الفسطاط مخافة أن يسمع كلامه أحد قال: ثم نهد إلي فقال: يا خلف سرّ اللّه فلا تذيعوه ولا تعلّموا هذا الخلق أصول دين اللّه بل ارضوا لهم ما رضي اللّه لهم من ضلال قال: ثم عقد بيده اليسرى تسعين، ثم قال تستدخل القطنة ثم تدعها مليّاً ثم تخرجها إخراجاً رفيقاً فإن كان الدم مطوّقاً في القطنة فهو من العذرة وان كان مستنقعاً في القطنة فهو دم من الحيض، قال خلف: فاستخفني الفرح، فبكيت فلما سكن بكائي فقال: ما أبكاك؟ قلت: جعلت فداك من كان يحس هذا غيرك فرفع يده إلى السماء وقال: واللّه إني

---

(١) المضرب: بكسر الميم، الخيمة العظيمة، جمع مضارب.

ما أخبرك إلا عن رسول اللّه عن جبرائيل عن اللّه عزّ وجلّ[1].

إننا نلاحظ في هذا الحديث الكلمة المنسوبة إلى الإمام «سر اللّه فلا تذيعوه ولا تعلّموا هذا الخلق أصول دين اللّه بل ارضوا لهم ما رضي لهم اللّه من ضلال».

إن هذا المنطق ـ بظاهره ـ ليس منطق أئمّة أهل البيت (ع) لأن الشريعة فيما تمثله من أحكام اللّه ليست أسراراً مخفيةً باطنية، يختص بها بعض الناس دون بعض، بل هي للناس جميعاً، فلا بد من تبليغهم إياها، بكل مفرداتها من قِبل الرسول وخلفائه، بكل الوسائل الممكنة، ولا سيّما مثل هذه الأحكام الفرعية التي لا تتصل بأي وضع عام حساس كقضية الخلافة ونحوها مما قد يبدو للذهن أن إثارتها في بعض الحالات قد تُحدث بعض المشاكل العامة للناس أو لأهل الحق بالذات.

إن طبيعة المنطق هي أن يطلب الإمام من هذا الرجل إيصال هذا الحكم إلى من حوله من الناس الذين اختلفوا في هذه المسألة ولو بالطريقة التي لا ترتبط بالإمام إذا كان هناك ما يمنع من نسبتها إليه، وذلك بأن ينسبها إلى بعض الاجتهادات الكثيرة الموجودة في الساحة، لأن المذهبية الشاملة لم تكن معروفةً لدى الأمة أنذاك.

ثم ما معنى ولا تعلّموا هذا الخلق أصول دين اللّه بل إرضوا لهم ما رضي لهم اللّه من ضلال وكيف يمكن للناس أن يعرفوا أصول الدين، إذا انطلقت الدعوة في النهي عن التعليم للجاهلين منهم والهداية للضالين منهم، وكيف نرضى لهم الضلال إذا كان ضلالهم ناشئاً عن ابتعادهم الطبيعي عن المواقع الحقيقية للهداية الإلهية، وقد يحتمل أن يكون المراد هو الناس الذين يرفضون اتّباع أهل البيت بحيث يرفضون أيّ مفهوم إسلامي، أو أيّ حكم شرعيّ منسوب إليهم لمجرد ارتباطه بهم بغضاً وعداوة لهم، ليكون ضلالهم منطلقاً من حالة عناد يعرف الحقيقة، وينكرها، لا من

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٨ ص ١١٢ ـ ١١٣ (نقلا عن الكافي ج ٣ ص ٩٣).

حالة حيرة يريد أن يبلغها بأيّ طريق. . .

وعلى كل حال فإن مثل هذه الظواهر التي توحي بالمنطق العكسي للنهج الذي يتحرك فيه الأئمة (ع) في منهجهم في الدعوة إلى اللّه وفي تبليغ كل الأحكام الشرعية للناس كافة وفي مراقبة كل الانحرافات الطارئة فيما هو الخط المستقيم للشرعية لإعادة الناس إليه.

إن مثل هذه الظواهر تسيء إلى الصورة المشرقة للأئمة (ع)، لذلك فلا بد أن يكون الراوي قد أساء التعبير فيما فهمه من كلام الإمام (ع) الذي كان يريد أن يتحدث عن المسألة في دائرة الضغوط التي كان الحكم يمارسها ضدهم، والمجتمع الذي كان يتبعه في ذلك، مما جعل الأئمة يبتعدون عن قيادة الحركة التثقيفية للأمة بالإضافة إلى إبعادهم عن قيادة الحركة السياسية، الأمر الذي قد يجعل مسألة التعليم من شيعة أهل البيت مسألةً خطرةً على الذين يقومون بهذه الرسالة.

وفي ضوء هذه المناقشة فإن من الضروري تقديم أمثال هذه الأحاديث إلى القراء المسلمين، مع دراسة توضيحية، بمثابة الملحق للحديث، لإلقاء الضوء على طبيعة الظروف التي أملت على الإمام التحدث بمثل هذه الطريقة، ونوعية القضية التي يريد تركيزها بذلك، مع التأكيد على ملاحظةٍ مهمة، وهي: أن الرواة قد ينقلون الكثير من الكلمات بالمعنى، وقد يغفلون عن نقل خصوصيات الجوّ، وطبيعة الايحاءات.

وفي ضوء هذه المسألة نحب أن نشير إلى كثيرٍ من الكلمات التي اعتاد الناس ترديدها في بعض الأدعية أو الأحاديث أو الزيارات مما يحمل بعض الكلمات القلقة التي قد توحي ظواهرها ببعض المفاهيم التي ليست مقصودة للمتكلم لأنها لا تنسجم في طبيعتها الظاهرية، مع المرتكزات العقيدية للمفاهيم الإسلامية.

وهنا نلاحظ أن البعض يصرّ على ابقائها في التداول التقليدي للأدعية والزيارت، لتأخذ طريقها ـ بعد ذلك ـ إلى أذهان بعض الناس المعقّدين من

التشيع وأهله، ليعتبروها أساساً للتشكيك بالعقيدة فيما يتحدثون عنه من الانحراف في عقيدة الغلوّ ونحوها. . ويرون في هذه الكلمات شاهداً على ذلك.

ونقدم أمام هذه الملاحظة ما يردده الناس في دعاء الفرج. . الذي ينتهي بهذه الكلمات:

فرّج عنا ـ يا اللّه ـ بحقهم فرجاً عاجلاً قريباً كلمح للبصر أو هو أقرب من ذلك يا اللّه يا اللّه يا اللّه، يا محمد يا علي يا علي يا محمد أكفياني فأنكما كافيان وانصراني فإنكما ناصران. .

ما الذي يوحي به هذا الكلام ـ بظاهره ـ غير أن هناك أستعانةً بالنبي وبالإمام علي في عرض الاستعانة باللّه، وكيف يكفينا الرسول والإمام أو ينصرانا، إذا لم يكن اللّه هو الذي يريد أن يكفينا مما نخاف أو ينصرنا على من نخاف منه.

إننا نؤكد أن المقصود بهذه الكلمات هو الاستشفاع بهما إلى اللّه في الكفاية والنصرة، ولكن التعبير يوهم غير ذلك مما هو غير مقصود، فلماذا نصر على إبقائه في التداول الشعبي الذي قد يركّز في الذهن عقيدة غير واضحة فيما يمكن أن يسبق إلى الذهن من هذه الظواهر في نصّ لم تثبت روايته من نبيّ أو أمام معصوم.

❊ ❊ ❊

العمل اليدوي في خط القيمة الإسلامية

روي في الكافي[1] عن عدة من أصحابنا عن سهل عن الجاموراني عن الحسن بن علي بن أبي حمزة عن أبيه قال: رأيت أبا الحسن (ع) يعمل في أرض له قد استنقعت قدماه في العرق فقلت جعلت فداك أين الرجال فقال يا علي قد عمل باليد من هو خير مني في أرضه ومن أبي فقلت: ومن هو

---

(١) الكافي ج ٢ ص ١٠٨.

فقال: رسول اللّه وأمير المؤمنين (ع) وآبائي مهما كانوا قد عملوا بأيديهم وهو من عمل النبيين والأوصياء والصالحين.

* * *

إن هذه القضية التي أثارها الإمام الكاظم (ع) بعمله وكلامه تؤكد القيمة الإسلامية للعمل اليدوي في حياة الإنسان المسلم أياً كان موقفه فليس هناك شخص يرتفع في منزلته الاجتماعية أو الدينية عن ذلك بحيث لا يناسبه ذلك لتكون المسألة في موقعه أن يعهد بذلك إلى غيره فيبتعد عن جهد العمل ونتائجه القاسية فإن الإمام يؤكد أن ذلك من عمل النبيين والأوصياء والصالحين مما يجعل أساس القيمة الاجتماعية الدينية بدلاً من أن يكون ضد القيمة في النظرة الطبقية العامة التي تجعل العمل اليدوي وهذا هو ما ينبغي للتربية الإسلامية أن تتركز عليه لا سيما في مواقع الناس الذين يملكون بعض المواقع الدينية أو الاجتماعية التي لا تستغرق أوقاتهم فيلجأون بفعل التربية الدينية المنحرفة التي ترى في العمل قيمة مضادة للموقع إلى البطالة في أوقات فراغه ويعيشون كلاً على غيرهم كما نجد في بعض الذين يتزيون بالزي الديني انطلاقاً من دراساتهم الدينية ولكنهم يقضون عمرهم في الفراغ العابث والبطالة اللاهية بعيداً عن الدرس والعمل الديني الرسالي ويتحوّلون إلى عبء على الأمة من دون آية فائدة لهم في حياتهم لتقوم الأمة بالإنفاق عليهم من الحقوق الشرعية من دون معنى ولا أساس من دين.

السجود للّه شكراً للنعمة

جاء في الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن عطية عن هشام بن أحمد قال: كنت أسير مع أبي الحسن (ع) في بعض أطراف المدينة فخرّ ساجداً فأطال وأصال، ثم رفع رأسه وركب دابته فقلت: جعلت فداك قد أطلت السجود؟! فقال: إنني ذكرت نعمةً أنعم اللّه بها عليّ فأحببت أن أشكر ربي[1].

* * *

(١) الكافي ج ٢ ص ٩٨.

إن هذا السلوك الروحي يوحي إلينا بالحاجة الدائمة إلى الانفتاح على اللّه في كل الحالات، وفي كل المواقع، بحيث يطوف الإنسان في كل أوضاع حياته لينظر مواضع نعمة اللّه عليه، وموقعها من حياته ليتذكر الطاف اللّه به فيزداد معرفة له، واعترافاً بجميله، فيشكره على ذلك بالكلمة والفكرة والسجود. . ليؤكد بذلك الاحساس بعبوديته للّه وحاجته إليه، ليعبر عن ذلك فيدفعه التعبير إلى تجسيد الموقف في كيانه بكل الوسائل.

وهذا هو الذي ينمي في الإنسان الشعور بحضور اللّه الدائم من خلال استحضار مفردات نعم اللّه في حياته مما يثير في نفسه انفتاح حياته اليومية على اللّه في كل شيء، فلا تبقى صورة اللّه عنده مجرّد حالةٍ عقلية تنطلق من خلال المعادلات الفكرية التي تؤكد وجوده ووحدانيته، بل تتحول إلى حالة وجدانية ترتبط بالإحساس والمعاناة اليومية. . وهذا هو الأسلوب القرآني الذي يوجه الناس إلى معرفة اللّه من خلال مواقع عظمته في خلقه ومواقع نعمه في حياتهم.

وقد ينبغي لنا أن نثير ذلك في حركة التربية الإسلامية على مستوى توجيه الناس إلى التأمل وإلى الممارسة العملية في الشكر المتجسد بالسجود وأمثاله، كأسلوب حيّ عمليّ في تعميق المعرفة باللّه.

***



الدعاء في حركة التربية الإسلامية



روى الكليني عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن عبد اللّه بن المغيرة عن موسى بن بكر عن أبي إبراهيم (موسى بن جعفر) عليه السلام كان كتبه لي في قرطاس: «اللّهم أردّد إلى جميع خلقك مظالمهم التي قبلي، صغيرها وكبيرها في يسر منك وعافية وما لم تبلغه قوتي ولم تسعه ذات يدي ولم يقو عليه بدني ويقيني ونفسي فأدّه عني من جزيل ما عندك من فضلك ثم لا تخلف علي منه شيئاً تقضيه من حسناتي، يا أرحم الراحمين.

أشهد أن لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمداً عبده

ورسوله وان الدين كما شرع وأن الإسلام كما وصف وأن الكتاب كما أنزل وأن القول كما حدّث وان اللّه هو الحق المبين ذكر اللّه محمداً وأهل بيته بخير، حيّا محمداً وأهل بيته بالسلام[1].

إن هذا الدعاء يمثل أسلوباً تربوياً في عملية التهذيب النفسي في التحرر من كل نقاط الضعف الإنساني فيما يمكن أن تقود إلى العدوان على الآخرين انطلاقاً من بعض الأوضاع النفسية المعقدة، وذلك بالابتهال إلى اللّه أن يرزقه القوة إلى أن يرد مظالم الناس التي صدرت منه، لأهلها سواء كانت المظالم مالية فيما أخذه من أموالهم، أو غير ذلك فيما تصرف فيه بغير حق في أجسادهم وأعراضهم وما إلى ذلك. . وأن ييسر له ذلك في عافية منه. . حتى أذا شعر بالعجز عن ذلك رفع أمره إلى اللّه ليعوض أصحاب المظالم عنها فيرضيهم بما يمنحهم من فضله ليتخفف من ذلك بشكل نهائي، ليبدأ حياةً جديدة خالصةً من كل ظلم، بعيدة عن كل انحراف. . فإن المشكلة في بعض الممارسات الخاطئة التي قد يقوم بها البعض لا سيما فيما يتعلق بحقوق الناس، هي إنها قد تتحول إلى عقدة مستعصية عميقة الجذور في النفس، بحيث قد تعقّد الإنسان وتمنعه عن الانفتاح على الحياة الجديدة الطاهرة الخالية من الأخطاء.

وهكذا نرى أن الدعاء قد انتهى بالاعلان إلى اللّه بأنه يؤمن باللّه ورسوله وكتابه ورسالته كشاهد على التزامه بالخط المستقيم في خطه الإسلامي الأصيل، بحيث يمثل الانضباط في كل أقواله وأفعاله وعلاقاته بهذا الخط.

وقد نلاحظ أن الدعاء الإسلامي الذي يتمثل فيما روي عن النبيّ (ص) والأئمة الهداة من أهل بيته يمثل الأسلوب العملي الايحائي الذي يدفع بالإيحاءات الطاهرة إلى أعماق النفس ليعيش الإنسان المفاهيم الصحيحة والانفعالات الطاهرة، من موقع إحساسه بها من الداخل في مجال اعترافه بها

---

(١) الكافي ج ٣ ص ٥٥٥.

أمام اللّه واستعانته به على أن ينقذه من كل نتائجها السلبية، ليكون بذلك أقدر على معالجتها مما لو جاءت إليه كنصيحة من الخارج.

وإذا كان هذا النموذج من الدعاء يمثل أسلوباً تربوياً في التهذيب النفسي فإن هناك نموذجاً آخر يمثل أسلوباً روحياً في تعميق العلاقة بالإخوان المؤمنين من خلال الإيحاء الداخلي الشعوري وهو الدعاء للمؤمنين بظهر الغيب فقد جاء في الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبيه قال: رأيت عبد اللّه بن جندب بالموقف فلم أر موقفاً كان أحسن من موقفه، ما زال ماداً يديه إلى السماء ودموعه تسيل على خده حتى تبلغ الأرض فلما انصرف الناس قلت له: يا أبا محمد ما رأيت موقفاً قط أحسن من موقفك قال: واللّه ما دعوت إلا لاخواني وذلك أن أبا الحسن موسى بن جعفر (ع) أخبرني أنه من دعا لأخيه بظهر الغيب نودي من العرش: ها! ولك مائة ألف ضعف مثله فكرهت أن ادع مائة ألف ضعف مضمونة لواحد لا أدري هل يستجاب أو لا[1].

إن هذا الانفتاح على الأخوة المؤمنين في ظهر الغيب فيما يعانونه من مشاكل وآلام أو يتطلعون إليه من رغبات وأحلام، توحي للإنسان المؤمن بالعلاقة الحميمة التي تشده إلى إخوانه بحيث يعيش الهمّ الكبير في شؤونهم الحياتية كما لو كان الهم همه في شؤونه الخاصة، مما يعمق في داخله الاحساس بالمحبة والمودة فيما يتمثل ذلك بالمعاناة الروحية في السلوك الدعائي.. فإذا تحول هذا الأسلوب العملي الروحي إلى نهج عام في حياة المؤمنين، وتفاعلت آثاره الإيجابية في مشاعرهم.. كان ذلك بمثابة ميثاق إيماني روحي غير مكتوب يعيش فيه كل مؤمن الالتزام العبادي فيما يمثله الدعاء من أسلوب العبادة بأنه سيعيش هموم أخيه بين يدي اللّه ليتحول بعد ذلك إلى هم عملي في حياته عندما يؤكد حركة الشعور إلى حركة مساعدة في الحياة فيما يقدمه لأخيه من جهد كبير.

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٥٠٨.

وإذا كان الحديث يؤكد الثواب الكبير غير العادي الذي يحصل عليه الداعي لإخوانه بظهر الغيب فإنه يدل على القيمة العظيمة التي جعلها الإسلام لهذا السلوك العباديّ في المنهاج العام للدعاء في حياة المؤمن.

لمحة من أسلوبه الأخلاقي

جاء في الإرشاد للمفيد أن رجلاً من ولد عمر بن الخطاب بالمدينة يؤذي أبا الحسن موسى عليه السلام ويسبه إذا رآه ويشتم عليا فقال له بعض حاشيته يوما: دعنا نقتل هذا فنهاهم عن ذلك أشد النهي وزجرهم وسأل عن العمري فذكر أنه يزرع بناحية من نواحي المدينة فركب إليه فوجده في مزرعة له فدخل المزرعة بحماره فصاح به العمري لا توطىء زرعنا فتوطأه عليه السلام بحماره حتى وصل إليه ونزل وجلس وباسطه وضاحكه وقال له: كم غرمت على زرعك هذا قال مائة دينار قال: فكم ترجو أن تصيب: قال: لست أعلم الغيب قال له: إنما قلت كم ترجو أن يجيئك منه قال أرجو أن يجيء مائتا دينار.

قال فأخرج له أبو الحسن عليه السلام صرة فيها ثلاثمائة دينار وقال هذا زرعك على حاله والله يرزقك منه ما ترجو قال فقام العمري فقبل رأسه وسأله أن يصفح عن فارطه فتبسم إليه أبو الحسن وانصرف، قال: وراح إلى المسجد فوجد العمري جالسا فلما نظر إليه قال: الله أعلم حيث يجعل رسالته قال فوثب أصحابه إليه فقالوا له: ما قضيتك؟ قد كنت تقول غير هذا قال: فقال لهم: قد سمعتم ما قلت الآن وجعل يدعو لأبي الحسن عليه السلام فخاصموه وخاصمهم فلما رجع أبو الحسن إلى داره قال لجلسائه الذين سألوه في قتل العمري: أيما كان خيرا ما أردتم أم ما أردت أنني أصلحت أمره بالمقدار الذي عرفتم وكفيت به شره [1].

***

إننا نجد في هذه القصة النظرة الإسلامية الواسعة التي كان ينظرها

(١) الإرشاد ص ٣١٧.

الإمام إلى المواقف السلبية التي يقفها بعض خصومه منه عندما يبادرونه بالعداوة والبغضاء وفيما يثيرونه من ممارسات سيئة كالسب والتجريح فلم يكن ليتعقد من ذلك ليبادر إلى مواجهة الموقف بالقوة التي تختار العنف القاتل والجارح ضد هذا أو ذاك من خصومه بل كان يدرس الأمر من خلال الخطة الإسلامية في الدفع بالتي هي أحسن بحيث يتحول العدو إلى صديق وذلك بدراسة ذهنية هذا الرجل أو ذاك ودوافعه العدائية ونقاط الضعف أو نقاط القوة في شخصيته من أجل التخطيط للأسلوب العملي الذي يفسح المجال للدخول إلى عقله وقلبه لاحتضان مشاعره في أجواء المحبة والمودة وللحصول على صداقته في نهاية المطاف وهكذا رأينا الإمام الكاظم يخطط للمسألة بالطريقة التي تختلف عما كان يفكر به أصحابه واستطاع أن يصل إلى النتيجة الطيبة بشكل سريع بحيث تحول هذا الرجل إلى شخص ينفتح على الإمام من موقع الرسالة لا من موقع الذات وهكذا اتخذ الإمام من هذه التجربة الطيبة الناجحة منطلقا لتوجيه أصحابه إلى الدخول في عملية مقارنة بين ما أرادوه من قتله وما أراده من إصلاحه ولدراسة أمثال هذه القضايا بالطريقة التي يحلون فيه المشكلة من موقع المحبة لا من موقع العداوة والبغضاء من خلال أسلوب الرفق لا من خلال أسلوب العنف.

هل كان التشيع في عهد الإمام الكاظم (ع) حركة إسلامية تعمل للوصول إلى الحكم ليكون الأئمة على رأس الدولة من موقع أنهم يمثلون الشرعية الوحيدة للولاية الإسلامية من خلال عقيدة الشيعة الإمامية بأنهم خلفاء النبي وأوصياؤه، مما يجعل من السلطات الحاكمة أنذاك سلطات غير شرعية، لأنها لا تملك الأساس الشرعي في ذلك.

ربما كانت المسألة واردة في تفكير البعض من المتحمسين للخط الإمامي في نطاق الحركة الشيعية أنذاك ولذلك فإنهم كانوا يتحدثون إلى الأئمة في ذلك ويستعجلونهم التحرك لا سيّما عندما كانوا يعيشون المعاناة الصعبة في اضطهاد السلطات لهم ومحاصرتهم وتشريدهم، أو فيما كانوا يلاحظونه من التضييق على الأئمة (ع) بمختلف الوسائل من السجن

والملاحقة المخابراتية ونحو ذلك.. وكان الإئمة يربطونهم بالمستقبل ويحدثونهم عن قائم آل محمد (ع) بطريقة متنوعة العناوين من دون أن يجدوا لهم تاريخا معينا ليخففوا من غلواء حماستهم التي قد تتحول إلى عنصر ضاغط على الواقع بحيث يدفعهم إلى تصرفات غير معقولة قد تقضي على الحركة من الأساس، وقد تهدد رموزها في وجودهم وفي كل مواقعهم.

وربما كان الأئمة لا يرون أية فرصة واقعية لتحقيق هذا الهدف الكبير لأن المسألة قد تحتاج إلى إعداد قاعدة كبيرة ملتزمة للنهج الإسلامي في خط أهل البيت (ع) مع القدرة على التحرك الفاعل من خلال الإمكانيات الخاصة ومن خلال الظروف الموضوعية التي تحيط بالواقع الإسلامي كله.. ولم تكن هذه القاعدة متوفرة بالحجم الكبير ولم تكن الوسائل العملية بالمستوى الذي يمكنها فيه من الاقتراب نحو الهدف لا سيما إذا عرفنا أن أية حركة في مكان لا تستطيع أن تتواصل مع الحركة المساندة في موقع آخر لفقدان وسائل الاتصال السريعة مما يجعل للحركة موقعا محدودا خاضعا لإمكانات الحصار المتعددة إذا لم يتوفر لها الإعداد اللازم الطويل الذي قد يكون الأساس فيه إيمان الناس بإمامة أئمة أهل البيت (ع) بالدرجة التي تحقق الارتباط العملي بهم من خلال الارتباط الإيماني بولايتهم.. ولم يكن ذلك متوفرا في الساحة الإسلامية العامة التي كانت تحمل التقدير والتعظيم للأئمة من أهل البيت (ع)، فيما تتمثله فيهم من الدرجة العليا من الإيمان والعلم والعمل والمواقع الرفيعة في القرب من اللّه.. ولذلك، فأن عملية الاستجابة للحركة الإمامية لا تحمل الكثير من الفرص الكبيرة مما يجعل منها في كثير من الحالات حركة انتحارية في نطاق المرحلة من دون أن تحقق أية نتيجة على مستوى القضايا الكبيرة المطروحة في ساحة الأئمة من التوعية الروحية والشرعية والسياسية ضد خط الانحراف.

وإذا كان البعض يتحدث عن حركة الإمام الحسين (ع) التي كانت حركة استشهادية، تشبه الحالة الانتحارية، فيما تفتقده من فرص الانتصار فأن الظروف التي انطلقت فيها كانت بحاجة إلى الصدمة العنيفة التي تهز

ضمير الأمة بعنف وتتحدى المظهر الإسلامي الشكلي للحكم الأموي الذي كان يخفي الانحراف عن الإسلام في داخله تحت قناع زائف. . وبذلك فلم تكن حركة من أجل الوصول إلى الحكم. . ولكنها كانت حركة من أجل إثارة القضايا الكبيرة في مواجهة خط الانحراف بقوة. . لتبقى للمعارضة الإسلامية الطليعية إمكانات التحرك في الساحة في المستقبل بمفاهيمها التغييرية أو الاصلاحية، وذلك بالقضاء على الجمود الحركي الذي كان يخيم على الساحة العامة من خلال السيطرة المطلقة التي يمارسها الحكم المنحرف أنذاك.

وفي ضوء ذلك لم تكن الظروف التي عاشها الأئمة بعد ذلك هي نفس الظروف. . ولم يكن الوضع الإسلامي في حركته الثقافية والسياسية جامدا في نطاق الواقع الذي يسيطر عليه الحاكمون، بل كان يملك الحركة على أكثر من صعيد سواء كان ذلك من خلال النشاط السياسي السري الذي يختزن في داخله بعضا من النشاط الثقافي، أو من خلال النشاط الثقافي العلني في الساحات الثقافية المتنوعة الممتدة في الحياة الإسلامية أو من خلال بعض الحركات الصغيرة في خط المعارضة المسلحة هنا وهناك. . مما كان يجعل الواقع الإسلامي منفتحا على أفاق التغيير في أكثر من موقع.

وقد كان الأئمة يرون أن الأسلوب العملي الذي ينسجم مع المرحلة المعاصرة لهم هو أسلوب التوعية الروحية والثقافية والتعبئة السياسية المتحركة في خط تكوين القاعدة الإسلامية الرافضة للانحراف في مستوى الواقع. . ولذلك كان كل جهدهم هو تكوين هذه القاعدة الشعبية المعارضة وحمايتها من أي اهتزاز أو ضغط أو انفعال وغير ذلك من الأوضاع التي تعرّضها للخطر.

وكانت التقية بأساليبها المتعددة الوسيلة الحركية المتنوعة لحماية القاعدة ورعاية الخط، في المحاولة التي تتسامح فيها في التفاصيل للحفاظ على المبدأ، وتتغاضى فيها عن الفروع للمحافظة على الأصول في خطة مدروسة لا تسمح بالانحراف، أو بإيقاع الفساد في الدين. كمالا تسمح

الحركة لأنها تمثل المرونة الحركية في خط السير فلا يمكن أن تتحول إلى شلل وجمود.

وقد كانت المكانة الكبيرة التي يتميز بها الأئمة لدى المسلمين والعقيدة التي كان يعتقدها الشيعة بهم تمثل هاجسا دائما للخلفاء في زمانهم خوفا من تأثير ذلك. ولو على المدى البعيد وعلى مواقعهم في الخلافة، أو على قوتهم فيها.. فكانوا يطلقون الجواسيس عليهم ليرصدوا حركاتهم وعلاقاتهم وأقوالهم وأصحابهم كما كانوا يوظفون الأموال لإغراء بعض ضعفاء النفوس من أقربائهم لينقلوا إليهم بعض أخبارهم مما قد يشارك ذلك في اتخاذ بعض الإجرءات القاسية كالحبس، وربما أدى ذلك إلى القتل بطريق السمّ ونحوه وهذا ما نلاحظه في بعض الأجواء المحيطة بالإمام الكاظم (ع) على أساس الروايات المنقولة في سيرته.

فقد ورد في عيون أخبار الرضا، للصدوق، فيما رواه عن علي بن محمد النوفلي قال: حدثني أبي أنه كان سبب سعاية يحيى بن خالد بموسى بن جعفر (ع) وضع الرشيد ابنه محمد بن زبيدة في حجر جعفر بن محمد الأشعث فساء ذلك يحيى وقال: إذا مات الرشيد وأفضى الأمر إلى محمد انقضت دولتي ودولة ولدي وتحوّل الأمر إلى جعفر بن محمد الأشعث وولده وكان قد عرف مذهب جعفر في التشيع فأظهر له أنه على مذهبه فسّر به جعفر وأفضى إليه بجميع أموره وذكر له ما هو عليه في موسى بن جعفر عليه السلام.

فلما وقف على مذهبه سعى به إلى الرشيد فكان الرشيد يرعى له موضعه وموضع أبيه من نصرة الخلافة فكان يقدم في أمره ويؤخر ويحيى لا يألو أن يخطب عليه إلى أن دخل يوما إلى الرشيد فأظهر له إكراما وجرى بينهما كلام متّ به جعفر بحرمته وحرمة أم أبيه فأمر له الرشيد في ذلك اليوم بعشرين ألف دينار، فأمسك يحيى أن يقول فيه شيئا حتى أمسى ثم قال للرشيد: يا أمير المؤمنين قد كنت أخبرك عن جعفر ومذهبه فتكذب عنه وههنا أمر فيه الفصل قال: وما هو قال: إنه لا يصل إليه مال من جهة من الجهات

إلا أخرج خمسه فوجه به إلى موسى بن جعفر ولست أشك أنه قد فصل ذلك في العشرين ألف دينار التي أمرت بها فقال هارون: إن في هذا الأمر لفيصلا، فأرسل إلى جعفر ليلا، وكان قد عرف سعاية يحيى به فتباينا وأظهر كل واحد فيهما لصاحبه العداوة، فلما طرق جعفر رسول الرشيد بالليل خشي أن يكون قد سمع فيه قول يحيى وأنه إنما دعاه ليقتله، فأفاض عليه ماء ودعا بمسك وكافور فتحنّط بها، ولبس بردة فوق ثيابه وأقبل إلى الرشيد، فلما وقعت عليه عينه وشم رائحة الكافور، ورأى البردة عليه، قال: يا جعفر ما هذا؟.

فقال: يا أمير المؤمنين قد علمت أنه قد سعي بي عندك، فلما جاءني رسولك في هذه الساعة لم آمن أن يكون قد قدح في قلبك ما يقال علي فأرسلت إلي لتقتلني.

فقال: كلا، ولكن قد خبرت أنك تبعث إلى موسى بن جعفر من كل ما يصير إليك بخمسه، وأنك قد فعلت ذلك في العشرين ألف دينار فأحببت أن أعلم ذلك فقال جعفر: اللّه أكبر يا أمير المؤمنين تأمر بعض خدمك يذهب فيأتيك بهابخواتيمها.

فقال الرشيد لخادم له: خذ خاتم جعفر وانطلق به حتى تأتيني بهذا المال وسمى له جعفر جاريته التي عندها المال فدفعت إليه البدر بخواتيمها فأتى بها الرشيد فقال له جعفر: هذا أول ما تعرف به كذب من سعى بي إليك قال: صدقت يا جعفر انصرف آمنا فأني لا أقبل فيك قول أحد قال: وجعل يحيى يحتال في إسقاط جعفر [1].

ونلاحظ في هذه الرواية عدة أمور:

١ ـ أن حركة التشيع قد استطاعت أن تدخل بعض أفرادها في عمق موقع الخلافة ليكون مربيا لولد الخليفة مما يدل على المرونة الواسعة في إمكانات الوصول إلى المواقع المميزة في السلطة.

---

(١) عيون أخبار الرضا ج ١ ص ٦٩.

٢ ـ إن الشيعة كانوا يعملون للامتداد في مراكز السلطة الكبرى بحيث أنهم يستفيدون من أية حالة تعاطت مع الخط الإمامي ليؤكدوا العمل على الارتباط بالإمام في عملية تثقيف وتوعية وانتماء وهذا ما لاحظناه في الحديث التفصيلي الذي أفاض به جعفر الأشعث ليحيى في خصوصيات المذهب. وموقع الإمام الكاظم (ع) في مسألة الإمامة مع ملاحظة سلبية وهي السرعة التي انفتح فيها على يحيى بمجرد أن ذكر له أنه على مذهبه في الوقت الذي كان من المفروض أن يتأكد ويستوثق لموقفه بشكل أفضل.

٣ ـ أن يحيى كان يعمل على الايقاع بجعفر خوفا من السلطة التي قد يحصل عليها في المستقبل من خلال علاقته بمحمد الأمين ولذا فقد كان يعمل على الايقاع به من خلال نسبة التشيع إليه وعلاقته بموسى بن جعفر الذي كان الرشيد يخاف من موقعه الكبير في الأمة فيما يعتقده فيه الشيعة من شرعية إمامته وتقديمهم حقوقهم الشرعية إليه مما يوحي بأن المسألة تمثل درجة كبيرة من الخطورة بحيث أن جعفر كان يعتقد بأن اقتناع الرشيد بذلك يكفي في قتله بحيث استعد لذلك عند إرسال الرشيد خلفه.

ونلاحظ أن هذا الرجل كان واعيا لموقفه وموقعه بعد أن عرف نوايا يحيى ضده مما جعله يحتاط للمسألة في الأمور التي يمكن أن ينفذ منها الشك إليه. وهذا هو الذي جعله ينطلق أمام الرشيد في موقع القوّة في الموقف بعد ظهور كذب يحيى في قوله، فطلب من الرشيد أن يمنحه الثقة المطلقة في المستقبل.

ويتابع النوفلي روايته فيقول: فحدثني علي بن الحسن بن علي بن عمر بن علي عن بعض مشايخه وذلك في حجة الرشيد قبل هذه الحجة قال: لقيني علي بن إسماعيل بن جعفر بن محمد فقال لي: ما لك قد أخملت نفسك ـ ما لك لا تدبّر أمر الوزير فقد أرسل إلى فعادلته وطلبت الحوائج إليه.

وكان سبب ذلك أن يحيى بن خالد قال ليحيى بن أبي مريم: ألا تدلني على رجل من آل أبي طالب له رغبته في الدنيا فأوسّع له منها قال: بلى،

أدلك على رجل بهذه الصفة، وهو علي بن إسماعيل بن جعفر بن محمد فأرسل إليه يحيى فقال: أخبرني عن عمك وعن شيعته والمال الذي يحمل إليه فقال له: عندي الخبر فسعى بعمه، فكان في سعايته أن قال: أن من كثرة المال عنده أنه اشترى ضيعة تسمى البشرية بثلاثين ألف دينار فلما أحضر المال قال البائع: لا أريد هذا النقد أريد نقد كذا وكذا فأمر بها فصبت في بيت ماله وأخرج منه ثلاثين ألف دينار من ذلك النقد ووزنه في ثمن الضيعة.

قال النوفلي: قال أبي: وكان موسى بن جعفر عليه السلام يأمر لعلي بن إسماعيل بالمال ويثق به حتى ربما خرج الكتاب منه إلى بعض شيعته بخط علي بن إسماعيل، ثم استوحش منه فلما أراد الرشيد الرحلة إلى العراق بلغ موسى بن جعفر أن أخيه يريد الخروج مع السلطان إلى العراق، فأرسل إليه: ما لك والخروج مع السلطان قال: لأن علي دينا فقال: دينك عليّ قال: وتدبير عيالي قال: أنا أكفيهم فأبى إلاّ الخروج فأرسل إليه مع أخيه محمد بن جعفر بثلاثماية دينار وأربعة آلاف درهم فقال: اجعل هذا في جهازك ولا توتم ولدي [1].

وجاء في عيون أخبار الرضا عن علي بن إبراهيم عن اليقطيني عن موسى بن القاسم البجلي عن علي بن جعفر قال: جاءني محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد وذكر لي أن محمد بن جعفر دخل على هارون الرشيد فسلم عليه بالخلافة ثم قال له: ما ظننت أن في الأرض خليفتين حتى رأيت أخي موسى بن جعفر يسلم عليه بالخلافة قال: قال: وكان سعى بموسى بن جعفر يعقوب بن داود وكان يرى رأي الزيدية [2].

ونلاحظ في هذه النصوص أمورا:

١ ـ أن موقع النفوذ العليا في سلطة الخلافة كانت تبحث عن العناصر القلقة في محيط الإمام الكاظم (ع) لتوظفها في سبيل إيصال المعلومات

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر نفسه ص ٧٢.

المخيفة للرشيد التي تؤكد له خطورة موقع الإمام الكاظم (ع) كمنافس خطير له في الخلافة، وقد استطاع حسب الرواية الحصول على شخص علي بن إسماعيل بن جعفر وهو إبن أخ الإمام الكاظم (ع) الذي كان يعيش عقدة داخلية كبيرة بحيث لم ينفع إحسان الإمام إليه وتقريبه إلى خصوصياته ومواقع المسؤولية لديه ووعده إياه بكل خير ثم كان الشخص الآخر حسب الرواية الثانية أخاه محمد بن جعفر الذي فاجأ الرشيد بأن الإمام الكاظم (ع) يتصرف مع شيعته كما يتصرف الخليفة مع أتباعه أو كما يتصرفون معه ولم تذكر هذه الرواية ما هي طبيعة الظروف التي أملت عليه هذا السلوك المجرم...

وقد نلاحظ أن الرواية الأولى قد تحدثت عن موقع الثقة التي يوليها الإمام الكاظم (ع) لأخيه محمد بن جعفر حتى أنه كان يجعله وسيطا لإقناع علي بن إسماعيل بن جعفر بالعدول عن موقفه فنتساءل عن مدى دقة الرواية الثانية في صحتها ولكنها على أي حال تعطي فكرة عن النظرة التي كانت تسود الذهنية التاريخية حول الموضوع.

٢ ـ إذا صحت هاتان الروايتان أو أحدهما فقد تستوحي منهما الفكرة القائلة بأن البيت العظيم الشريف لا يمنح صاحبه مناعة من الانحراف ولا يعطيه امتيازا قدسيا في نفوس الناس فقد لاحظنا كيف تصرف هذان الشخصان أوأحدهما حسب الروايتين ضد الإمام الكاظم، بالرغم من كل رعايته لهما.

وقد نستفيد من ذلك أن على القياديين الإسلاميين أن لا يستسلموا لأقربائهم في منحهم الثقة المطلقة وإطلاعهم على أسرارهم فقد يكون من بين هؤلاء من يرتبطون بالمخابرات الاستكبارية الكافرة أو بالأجهزة الظالمة بحيث ينقلون إليهم كل المعلومات وكل الأسرار التي تهدد القيادة في سلامتها والعمل في حركته.

الإمام يتحدى الرشيد

وكان الإمام الكاظم (ع) فيما ترويه سيرته يتصرف بين وقت وآخر بطريقة تحمل الكثير من التحدي للرشيد في القضايا التي يرتكز عليها في

شرعية موقعه في الخلافة.

فمن ذلك ما رواه الكليني عن عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن علي بن حسان، عن بعض أصحابنا قال: حضرت أبا الحسن الأول عليه السلام ويقصد به الإمام الكاظم (ع) وهارون الرشيد وعيسى بن جعفر وجعفر بن يحيى بالمدينة قد جاؤوا إلى قبر النبي (ص) فقال: هارون لأبي الحسن تقدم فأبى فتقدم هارون فسلم وقام ناحيته وقال عيسى بن جعفر لأبي الحسن تقدم فأبى فتقدم عيسى فسلم ووقف مع هارون فقال جعفر لأبي الحسن تقدم فأبى فتقدم جعفر فسلم ووقف مع هارون فتقدم أبو الحسن عليه السلام فقال: السلام عليك يا أبة أسأل اللّه الذي اصطفاك واجتباك وهداك وهدى بك أن يصلي عليك فقال هارون لعيسى: سمعت ما قال قال: نعم فقال هارون: أشهد أنه أبوه حقا[1] فنحن نلاحظ أن الإمام أراد الإيحاء إليهم بأنه صاحب البيت ولذلك قدمهم على نفسه للسلام على رسول اللّه (ص) ثم كان خطابه للنبي بصفة الأبوة ليشير إلى الرشيد بأن الخلافة إذا كانت بالقرابة كما يدعي بنو العباس، فأنه أولى منه بها لأنه أقرب إلى النبي منه.

ومن ذلك ما رواه صاحب المناقب عن كتاب أخبار الخلفاء أن هارون الرشيد كان يقول لموسى بن جعفر: خذ فدكا حتى أردها إليك فيأبى حتى ألحّ عليه فقال (ع): لا أخذها إلّا بحدودها قال: وما حدودها قال: إن حددتها لم تردّها قال: بحق جدّك الّا فعلت قال: أما الحدّ الأول فعدن، فتغيّر وجه الرشيد وقال: أيها، قال: والحدّ الثاني سمرقند، فاربدّ وجهه قال: والحدّ الثالث أفريقية فاسود وجهه وقال هيه قال: والرابع سيف البحر مما يلي الجزر وأرمينية قال الرشيد: فلم يبق لنا شيء فتحوّل إلى مجلسي قال موسى: قد أعلمتك أنني إن حددتها لم تردّها فعند ذلك عزم على قتله[2].

---

(١) الكافي ١/٥٥٣.

(٢) المناقب ج ٣ ص ٤١٣.

ونلاحظ في هذه الرواية على تقدير صحتها ـ أن الإمام الكاظم عليه السلام أراد أن يؤكد للرشيد أن القضية لدى أئمة أهل البيت (ع) ليست مسألة أرض محدودة كان لهم الحق فيها فيما طالبت به فاطمة الزهراء عليها السلام أبا بكر ليرجع إليهم حقهم إذا أرجعها الرشيد إليهم، بل القضية هي الخلافة نفسها فيما تمثله من الولاية على المسلمين في إدارة شؤونهم العامة والخاصة في كل بلاد المسلمين التي يسيطر عليها، هو وأسلافه.. لأنهم وحدهم هم الذين يمثلون الشرعية الإسلامية في ذلك كله.

الإمام يثقف أصحابه بالرفض للسلطة المنحرفة

وكان يقوم بتثقيف أصحابه بالرفض الفكري للسلطة المنحرفة انطلاقا من عدم شرعيتها ولكنه في الوقت نفسه يعمل على أن يعالج الموضوع بالحكمة والمرونة العملية، فنراه في بعض الحالات يرفض لبعض أصحابه العمل من حيث المبدأ ويوحي له بالترك المطلق بينما يؤكد على بعضهم البقاء فيه ويشترط عليهم الالتزام برعاية إخوانه وتفضيلهم على أساس استحقاقهم لذلك من خلال ظلم الأخرين لهم وإهمالهم لحقوقهم لانتسابهم إلى أهل البيت (ع).

فمن الفريق الأول صفوان الجمال وذلك فيما رواه الكشي في رجاله عن حمدويه قال: حدثني محمد بن إسماعيل الرازي قال: حدثني الحسن بن علي بن فضال: حدثني صفوان بن مهران الجمال قال: دخلت على أبي الحسن الأول (ع) فقال: يا صفوان كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئا واحدا، قلت: جعلت فداك أيّ شيء؟ قال: أكراؤك جمالك من هذا الرجل ـ يعني هارون ـ قلت: واللّه ما أكريته اشرا ولا بطرا ولا للهو ولكني أكريته لهذا الطريق ـ يعني طريق مكة ـ ولا أتولاه ولكن ابعث معه غلماني فقال لي: يا صفوان أيقع كراك عليهم قلت: نعم جعلت فداك فقال لي: أتحب بقاءهم حتى يخرج كراك قلت: نعم، قال: فمن أحب بقاءهم فهو منهم ومن كان منهم ورد النار، فقال صفوان: فذهبت وبعت جمالي عن آخرها فبلغ ذلك إلى هارون فدعاني وقال: يا صفوان بلغني أنك بعث

جمالك قلت: نعم قال: لم قلت: أنا شيخ كبير وأن الغلمان لا يفون بالأعمال، فقال: هيهات هيهات أني لأعلم من أشار عليك بهذا، أشارك موسى بن جعفر فقلت: ما لي ولموسى بن جعفر فقال: دع عنك هذا فوالله لولا حسن صحبتك لقتلتك [1].

إننا نلاحظ في هذه الرواية أن الإمام كان حاسما مع صفوان في ترك عمله من خلال الإيحاء بأن القضية ليست قضية العمل في ذاته في شرعيته الذاتية ليدور الحديث حول خصوصيته وأنه ليس للصيد أو للهو ونحو ذلك مما كان يتعارف سفرة الخلفاء له، بل هو لحج بيت الله الحرام، بل القضية قضية الحالة النفسية التي قد يعيشها في الرغبة في بقائهم حتى تخرج إليه أجرته، مما قد يغني بعض التعاطف مع أوضاعهم العامة بشكل غير مباشر، فيما تشتمل عليه من الظلم والعدوان وارتكاب المحرّمات.. وربما يمتد الأمر إلى أبعد من ذلك في الاقتراب النفسي بفعل المصالح المتبادلة التي تدفع الإنسان إلى الانفتاح على الظلمة الذين يتعامل معهم في معاملاته الحالية، هذا مع ملاحظة أن ذلك قد ينعكس سلبا على واقع المؤمنين الذين قد يرون صفوان قدوة لهم في ذلك فيقودهم ذلك إلى التعامل معهم بشكل منفتح من دون أيّ تحفظ فيؤثر ذلك على الموقف كله.

وإذا عرفنا أن عمل صفوان لا يتصل بالقضايا العامة الكبيرة للمسلمين وللشيعة بالخصوص، فلا يكون هناك من ضرر من خروجه ومن عمله لهم، بينما يتأكد الموقف الحركي في الأجواء العامة للحركة الإمامية في اختزان الرفض النفسي للواقع كله لهؤلاء. وربما لا يمثل هذا الموقف قاعدة عامة لأمثال هذه الحالة بل لا بد من دراسة الظروف الموضوعية المحيطة بكل حالة للتعرف على النتائج السلبية أو الإيجابية المتصلة بها لتحديد الحكم الشرعي على أساس ذلك، لا سيما إذا عرفنا أن المسألة هي التعاطف مع هؤلاء وأمثالهم بالرغبة في بقائهم، مما قد يكون بعض الناس في عصمة ذاتية، ومناعة روحية ضد ذلك.

---

(١) رجال الكشي ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

ومن الفريق الثاني علي بن يقطين، فقد ورد في رجال الكشي عن محمد بن اسماعيل عن اسماعيل بن مراد عن بعض أصحابنا أنه لما قدم أبو إبراهيم موسى بن جعفر (ع) العراق قال علي بن يقطين: أما ترى حالي وما أنا فيه فقال: يا علي إن لله تعالى أولياء مع أولياء الظلمة ليدفع بهم عن أوليائه وأنت منهم ياعلي [1].

وقد جاء في قرب الاسناد عن محمد بن عيسى عن علي بن يقطين او عن زيد عن علي بن يقطين أنه كتب إلى أبي الحسن موسى عليه السلام أن قلبي يضيق مما أنا عليه من عمل السلطان وكان وزيراً لهارون ـ فإن آذنت لي جعلني اللّه فداك هربت منه فرجع الجواب لا آذن لك بالخروج من عملهم واتق اللّه[2].

وقد جاء في الكافي عن محمد بن يحي عمن ذكره عن علي بن أسباط عن إبراهيم بن أبي محمود عن علي بن يقطين قال: قلت لأبي الحسن (ع) ما تقول في أعمال هؤلاء قال: إن كنت فاعلاً فاتق أموال الشيعة قال: فاخبرني علي أنه كان يجبيها من الشيعة علانية ويردها عليهم في السرّ[3].

فقد نلاحظ أن هذا الرجل كان يمثل مركز قوة في مركز الخلافة وكان الإمام الكاظم (ع) يرى فيه ضمانة كبيرة لدفع الظلم عن أولياء اللّه وعن حماية أموالهم وأنفسهم.. مما يجعل وجوده ضرورياً على مستوى حماية الحركة الإسلامية الإمامية في أتباعها ومواقعها ولذلك لم يرض له الإمام بالاستقالة بل فرض عليه البقاء بالشروط الشرعية التي تتمثل في السير في هذا الخط.

وقد نقلت كتب سيرة الإمام الكاظم (ع) أنه كان يتعهد علياً بالرعاية له في عمله حتى لا يقع في مكيدة الذين يدبرون له المكائد للإيقاع به عند

---

(١) رجال الكشي ص ٣٦٧.
(٢) قرب الإسناد ص ١٧٠.
(٣) الكافي ج ٥ ص ١١٠.

الرشيد، ونستوحي من ذلك ضرورة التوفر على اختيار بعض الشخصيات الموثوقة التي تملك الكفاءة والأمانة الدينية للدخول في مراكز النفوذ الرسمي في الدول الظالمة أو المنحرفة. . من أجل المصالح الإسلامية العليا على مستوى حماية الإسلام أو المسلمين أو التيارات الإسلامية الفاعلة لأن وجودها في هذه المواقع يحفظ الكثير من الأوضاع والمواقف ويحقق الكثير من الإيجابيات على أكثر من صعيد.

ومن الفريق الثالث زياد بن أبي سلمة، فقد جاء في الكافي فيما رواه الحسين بن الحسن الهاشمي عن صالح بن أبي حماد عن محمد بن خالد عن زياد بن أبي سلمة قال: دخلت على أبي الحسن موسى (ع) فقال لي: يا زياد إنك لتعمل عمل السلطان قال: قلت أجل. قال لي: ولم. قلت: أنا رجل لي مروة وعلي عمل وليس وراء ظهري شيء فقال لي: يا زياد لأن أسقط من حالق[1] فاتقطع قطعة قطعة أحب إلي من أن أتولى لأحد منهم عملاً أو اطأ بساط رجل منهم إلا لماذا؟ قلت: لا أدري جعلت فداك، قال: إلّا لتفريج كربة مؤمن أو فك أسره أو قضاء دينه يا زياد. أن أهون ما يصنع اللّه بمن تولى لهم عملاً أن يضرب عليه سرادق من نار إلى أن يفرغ اللّه من حساب الخلائق يا زياد. فأن وليت شيئاً من أعمالهم فأحسن إلى إخوانك فواحدة بواحدة واللّه من وراء ذلك يا زياد وأيما رجل منكم تولى لأحد منهم عملاً ثم ساوى بينكم وبينهم فقولوا له أنت منتحل كذاب يا زياد إذا ذكرت قدرتك على الناس فاذكر مقدرة اللّه عليك غداً ونفاد ما أتيت إليهم عنهم وبقاء ما أتيت إليهم عليك[2].

ونلاحظ في هذه الرواية أن عمل السلطان الجائر ـ في كلام الإمام ـ يمثل خطيئةً كبيرةً تتعدى خطورة الهلاك الجسدي في نتائجها السلبية على الإنسان في مسؤوليته أمام اللّه لأنها تمثل لوناً من ألوان الدعم العملي

(١) الحالق. . المكان المشرف العالي.
(٢) الكافي ج ٥ ص ١٠٩.

للسلطان الجائر في التفاف الناس حوله وتقوية سلطته وتنظيم أموره في حكمة وتثبيت قواعد ملكه، الأمر الذي يسيء إلى سلامة الخط المستقيم في الشريعة، وإلى اهتزاز العدل في الحكم في حياة الناس.

ولكن هذا الموقف السلبي من الحكم الجائر لا يبقى في دائرته السلبية إذا كانت هناك قضايا مهمة تتصل بحل مشاكل المؤمنين من خلالهم، فيما لا يمكن فيها الحل إلا من هذا الطريق، وذلك في النطاق المرحلي المحدود الذي لا يحمل أية إمكانية لعملية التغيير كما هو الحال في المرحلة التي كان الإمام يعيش فيها أو في المراحل المماثلة لها. . فإن من الواضح أن السلبية المطلقة قد تعطل الكثير من مصالح المؤمنين المستضعفين وتتحول إلى مشكلة معقدة كبيرة لا سيما إذا كانت الظروف الموضوعية لا تسمح بسقوط هذا الحكم على مستوى المراحل المنظورة، وفي الوقت الذي يسيطر فيه على مقدرات الواقع الحياتي كله، مما يستوجب الحرج الشديد عليهم وهو منفيّ في الشريعة في قوله تعالى: ﴿**ما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾.

هذا هو الذي يجعلنا نستوحي سعة مجال الرخصة للعمل مع السلطة الجائرة. وإيجاد العلاقات معهم من أجل القضايا العامة المتصلة بحياة المؤمنين المستضعفين، أو القضايا الخاصة المرتبطة ببعضهم التي ترقى إلى مستوى الأهمية في حياتهم.

ولعلّ من الطبيعي أن لا تتحول العلاقة إلى حالة استسلام للحكم وإقرار له بحيث تحقّق له الشرعية العامة في نظر المسلمين، لا سيّما إذا كانت العلاقة من قبل الأشخاص الذين ترتبط الشرعية الفقهية بأقوالهم وأفعالهم فلا بد لهم في الحالات الطارئة أو في الخطوط العامة من تثقيف الأمة بالواقع غير الشرعي للسلطة وبالدوائر الشرعية التي تتحرك فيها الرخصة فيما تحمله من العناوين الثانوية أو فيما تختزنه من المصالح العامة التي ترقى إلى درجة الأهمية المزاحمة للمفاسد الأقل أهمية حيث تجمّد الحكم الشرعي بالمنع إلى وقت مّا. .

وقد نحتاج إلى تسجيل ملاحظة مهمة في الجو العام لمثل هذه القضية

وهي ضرورة اعتماد الدقة والحذر في عملية توعية الأمة بالجانب السلبي المتمثل في علاقة الناس بالحكم الجائر، سواء كان ذلك في لقاءات علماء الدين بهم، أو علاقاتهم بهم أو في لقاءات الفعاليات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية الأخرى أو في إقامة العلاقات بينهم وبين بعض التيارات الإسلامية السياسية، فقد ينطلق الكثيرون في الوقوف ضد ذلك بشكل قوي ضاغط من خلال المفاهيم العامة الرافضة للظلم ورموزه، أو المضادة للكفر ومواقعه، لترمي الذين يقيمون تلك العلاقات بالانحراف والخيانة من دون التفات إلى الظروف الموضوعية المحيطة بالموقف، أو إلى المصالح الإسلامية العليا المترتبة على ذلك، مما قد يؤدي إلى انكماش الحركة الإسلامية في مواقعها الضيقة لأنها تخشى من الاتهامات الحادة التي قد توجّه إليها إذا تحركت في خط الانفتاح السياسي على الأخرى كما قد يؤدي إلى العزلة والشلل في النشاط القيادي على مستوى القضايا العامة المرتبطة بأكثر من محور دولي أو اقليمي من القوى التي تختلف عن الإسلام في خطوطه ومفاهيمه العامة. ولكنها تلتقي ببعض مواقعه وتتحرك في الخط المرحلي نحو أهدافه أو ترتبط ببعض القضايا الحيوية في حاجاته ومصالحه. وتلك هي خطورة إعطاء العناوين العامة للمفاهيم الإسلامية من دون تحديد الخطوط التفصيلية الفاصلة بين الرخصة والمنع.. حيث يتحول ذلك إلى ذهنية عامة قد يقفز فيها النقد إلى بعض المواقع التي لا يجوز للنقد أن يقترب منها باعتبار أنها تمثل مصدر الشرعية للخط وللموقع.. فإذا كنا نثقف الأمة على أن الاقتراب من مواقع السلطة الجائرة أو إيجاد بعض العلاقات معها يمثل انحرافاً عن خط الاستقامة في رفض الخط الجائر في الحكم، بعيداً عن ملاحظة كل الظروف الموضوعية المحيطة بالموقف فكيف يمكن أن نفسر سلوك الأئمة في ذلك مما يوجب وقوع الذهنية العامة في حيرة، وهل يكفي في ذلك الحديث عن التقية كعنصر وحيد للرخصة، في الوقت الذي قد لا نجد فيه للتقية موضعاً في بعض المواقف.

إننا ندعو إلى تقديم الاستثناءات إلى جانب القاعدة والخطوط الصغيرة

في دائرة الخطوط الكبيرة حتى تتحرك ثقافة الأمة في مسألة القيم الروحية والأخلاقية والسياسية في الخط الإسلامي الواقعي الذي لا ينطلق من فرضية اعتبار القيمة الإسلامية حركة مثالية في المطلق، بل ينطلق من اعتبارها حركة واقعية في واقع المصلحة الإنسانية العليا في حدودها الطبيعية المتوازنة. . إنطلاقاً من حركة المفهوم من النص، وفي السيرة الشريفة للنبيّ (ص) وللأئمة من أهل البيت (ع).

الإمام مع الثائرين على الحكم في عهده

وكان الإمام الكاظم (ع) يواجه المشكلة في حركة الثائرين من أهل بيته أو من الطامحين للموقعُ القيادي فيما يرونه من شرعيتهم الامامية في ذلك، فكانوا يطلبون منه الإنضمام إليهم وتقديم البيعة لهم لما يجدونه لديه من قدسية ونفوذ وامتداد في الأمة مما يستطيعون معه الحصول على قوة كبيرة.

وكان لا يرى للحركة المسلحة فرصة للنجاح كما لا يجد لها أية نتيجة سياسية ضاغطة على الواقع على صعيد نتائج المستقبل فيما يجعل عليه من أوضاع الثورة في الحاضر، الأمر الذي يجعل منها قفزة في الفراغ، فيما يشبه العملية الانتحارية التي قد تختزن مضموناً ثورياً، ومفهوماً إسلامياً يبعدها عن العبث الانتحاري ولكنها لا تختزن التأثير في الواقع حتى على مستوى العلاقة التي تهز مواقع السلطة فيه من الناحية المعنوية أو من الجانب الشعوري.

وكان يرى في بعض تحركات الطامحين من هؤلاء نوعاً من النزق القيادي فيما هي الطموحات لأنهم لا يملكون الشرعية في مواقعهم لأن الإمامة هي للأئمة المعروفين من أهل البيت (ع) ومنهم الإمام الكاظم (ع) كما أنهم لا يستطيعون الوصول إلى النتائج الحاسمة في حركة الطموحات وفي خط القضايا الكبيرة. .

فكان يرفض الدخول معهم في ذلك ويحتاط لموقعه في خطابه لهم كردّ فعل على خطابهم له حتى لا يتحمل النتائج السلبية المترتبة على ذلك عندما تتجه الأمور في الاتجاه الخطير. . ولكنه كان يتعاطف مع بعضهم ممن

يعرف فيهم الطهارة والإخلاص والاستقامة في خط الحماس للثورة وللأمة من دون أن يكون لهم طموحات ذاتية غير شرعية.

وهذا هو ما لاحظناه في موقفه في النموذج الأول، مع يحيى بن عبد اللّه بن الحسن الذي كان يطمح للخلافة من موقع أن له الحق فيها.. فقد كتب إلى الإمام كتاباً قاسياً خارجاً عن اللياقات الأخلاقية فيما يشبه الشتم والتجني. وذلك فيما رواه في الكافي بإسناده عن عبد اللّه الجعفري قال: كتب يحيى بن عبد اللّه بن الحسن إلى موسى بن جعفر (ع) أما بعد فإني أوصي نفسي بتقوى اللّه، وبها أوصيك فأنها وصية اللّه في الأولين ووصيته في الآخرين خبرني من ورد عليّ من أعوان اللّه على دينه ونشر طاعته بما كان من تحنّنك مع خذلانك وقد شاورت في الدعوة للرضا من آل محمد (ص) وقد احتجبتها واحتجبها أبوك من قبلك وقديماً ادعيتم ما ليس لكم وبسطتم آمالكم إلى ما لم يعطكم اللّه فاستهويتم وأضللتم وأنا محذّرك ما حذّرك اللّه من نفسه.

وكتب إليه أبو الحسن موسى بن جعفر (ع) من موسى بن أبي عبد اللّه جعفر وعلي مشتركين في التذلل للّه وطاعته إلى يحيى بن عبد اللّه بن الحسن، أما بعد فإني أحذرك اللّه ونفسي وأعلمك أليم عذابه، وشديد عقابه وتكامل نقماته، وأوصيك ونفسي بتقوى اللّه فإنها زين الكلام وتثبيت النعم، أتاني كتابك تذكر فيه أنّي مدّع وأبي من قبل، وما سمعت ذلك مني وستكتب شهادتهم ويسألون ولم يدّع حرص الدينا ومطالبها لأهلها مطلباً لآخرتهم حتى يفسد عليهم مطلب آخرتهم في دنياهم.

وذكرت أني ثبطت الناس عنك لرغبتي فيما في يديك وما منعني من مدخلك الذي أنت فيه لو كنت راغباً ضعف عن سنة ولا قلة بصيرة بحجة، ولكن اللّه تبارك وتعالى خلق الناس امشاجاً وغرائب وغرائز فأخبرني عن حرفين أسألك عنهما ما المعترف في بدنك وما الصهلج في الإنسان ثم أكتب إليّ بخبر ذلك.

وأنا متقدم إليك أحذرك معصية الخليفة واحثك على بره وطاعته وأن

تطلب لنفسك أماناً قبل أن تأخذك الأظفار ويلزمك الخناق من كل مكان تتروح إلى النفس من كل مكان ولا تجده حتى يمنّ اللّه عليك بمنه وفضله ورقة الخليفة أبقاه اللّه فيؤمنك ويرحمك ويحفظ منك أرحام رسول اللّه (ص) والسلام على من اتبع الهدى **﴿إنّا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى﴾** (سورة طه الآية ٤٨).

قال الجعفري: فبلغني أن كتاب موسى بن جعفر وقع في يدي هارون فلما قرأه قال: الناس يحملوني على موسى بن جعفر وهو بريء مما يرمى به[١].

إننا نلاحظ في كتاب يحيى خروجاً عن الاتزان في الحديث مع الإمام في التهجم عليه وعلى أبيه الإمام الصادق (ع) وفي اللهجة التحذيرية التي توحي بالتهديد وتختزن في داخلها الحالة النفسية العنيفة في الموقف السلبي الذي يقفه الإمام منه ومن طموحاته الذاتية ولذلك كان جواب الإمام موعظة ونصيحة وتحذيراً من النتائج السلبية فيما يمكن أن تنتهي إليه حركته من نتائج وخيمة.. وقد يكون في الطريقة التي عالج بها الإمام الحديث عن الخليفة في نصيحته ليحيى بالاعتذار إليه ليصفح عنه لون من ألوان الاحتياط لموقفه باعتبار أن مثل هذه التحركات قد توحي للخليفة بأن الإمام يقف وراءها باعتبار أنه يمثل الشخص الوحيد المؤهل للخلافة عندما تبتعد عن بني العباس إلى أهل البيت من ولد علي (ع).

وقد نجد في هذا أسلوباً في العمل السياسي الأمني عندما تمسّ الحاجة إلى إبعاد الأجهزة المخابراتية المرتبطة بالجاسوسية الدولية أو الاقليمية أو المحلية عن مواقع الحركة الإسلامية وتوجيهها إلى وجهة أخرى بعيدة عن مواجهة الموقع القيادي بشكل مباشر.

أما في النموذج الثاني فهو الحسين صاحب فخ الذي روى صاحب مقاتل الطالبيين أنه سأل الإمام موسى بن جعفر في الخروج على الخليفة

---

(١) الكافي ج ١ ص ٣٦٦.

فقال: إنك مقتول فأجد الضراب فإن القوم فساق يظهرون إيماناً ويضمرون نفاقاً وشكاً فإنا لله وإنا إليه راجعون وعند الله جلّ وعزّ «احتسبكم من عصبة»[1].

وروى في موضع آخر بأسانيده عن عنيزة القضباني قال: رأيت موسى بن جعفر بعد عتمة وقد جاء إلى الحسين صاحب فخ، فانكب عليه شبه الركوع وقال: أحب أن تجعلني في سعة وحل من تخلفي عنك فاطرق الحسين طويلاً لا يجيب ثم رفع رأسه فقال: أنت في سعة[2].

إننا نلاحظ موقفاً يختلف عن موقف الإمام من يحيى لأن الحسين لم ينطلق من موقع طموح ذاتي ومن حالة تمرّد على الإمامة والإمام بل انطلق من موقع الرفض الحاسم للواقع الذي كان يعيشه الناس في ظل الحكم الجائر وذلك فيما يمثله خطابه الثوري للناس فقد قال عند ما جاء الناس إليه يبايعونه: أبايعكم على كتاب اللّه وسنة رسول اللّه (ص) وعلى أن يطاع اللّه ولا يعصى وأدعوكم إلى الرضا من آل محمد وعلى أن أعمل فيكم بكتاب اللّه وسنة نبيه والعدل في الرعية والقسم بالسوية وعلى أن تقيموا معنا وتجاهدوا عدونا فإن نحن وفينا لكم وفيتم لنا وان نحن لم نف لكم فلا بيعة لنا عليكم.

ولما فشلت الحركة وقتل الحسين وأصحابه وقف الإمام ليؤبنه «إنا للّه وإنا إليه راجعون مضى واللّه مسلماً صالحاً صواماً قواماً آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر وما كان في أهل بيته مثله[3].

إنه يعطي الثائر الشرعية من خلال صفاته القيادية الإسلامية ولا يعتبر التحرك انحرافاً عن الخط. في الوقت الذي لا يجد ضرورة له أو فرصة للنجاح، مما يجعل منه حركة غير مضمونة النتائج على الصعيد الإيجابي.. ولكن ذلك لا يمنع التعاطف مع الثائر والثورة.. وقد تستوحي من ذلك

(١) مقاتل الطالبيين ص ٤٤٧.
(٢) نفس المصدر ص ٤٤٩.
(٣) نفس المصدر ص ٤٥٣.

إمكانية الحديث عن شرعية المواجهة للحاكم الجائر انطلاقاً من الحماس الإيماني الثائر في الخط الإسلامي الثوري على أساس القواعد الإسلامية للتغيير. . حتى لو لم تنطلق من خلال القيادة الشرعية بشكل مباشر. . فإن الخطأ في عدم الارتباط بالقيادة شيء والرفض للثائر وللثورة من ناحية إسلامية شعورية شيء آخر.

إننا من خلال هذا العرض كله نستطيع التأكيد على نقطة مهمة في حركة العمل الإسلامي في واقع الأمة، وهي دراسة الظروف الدقيقة التي تحكم الساحة العامة للواقع السياسي والاجتماعي الثقافي للتعرف على العناصر الحية التي تحكم إمكانات العمل ومراحله وأهدافه.

فقد تكون القضية هي أن ينطلق العاملون من أجل تعبئة الذهنية الإسلامية العامة بثقافة الرفض للحكم المنحرف الذي لا يملك الشرعية الإسلامية، سواء كان حكماً يتحرك في مواقع الحكام المسلمين أو في مواقع غيرهم وإيجاد القاعدة النفسية ضد الاستسلام له أو الانجذاب إليه أو الارتباط به بشكل عضوي. . . وتوجيه الفكر الحركي إلى الانطلاق مع القيادة الشرعية في مظاهرها ومواقعها المتنوعة الهادفة إلى العمل من أجل أن تكون هي البديلة عن القيادة اللاّشرعية وأن يكون الإسلام هو البديل عن النظام غير الإسلامي، ليبقى هاجس الانفتاح على مسألة الشرعية في القيادة والنظام، وفي وعي الأمة الإسلامية كوسيلة من وسائل الانفصال عن الانسجام مع شرعية الواقع لأن المسألة الثقافية إذا لم تنطلق في شمولية النظرة إلى تفاصيل الواقع في التخطيط لحركة المسألة السياسية، فسوف يتغير التصور العام للمسلمين لمصلحة الكفر والانحراف انطلاقاً من الانفتاح على الأمر الواقع الذي ينفذ بفعل امتداد الزمن إلى الفكر والشعور والحركة العملية.

وقد تكون القضية المطروحة هي أن لا يكون خط التشيع فيما هو التشيع وجهة نظر في خط الإسلام حالة معزولة عن الواقع العام للمسلمين فيبتعد أتباع أهل البيت (ع) عن حركة المجتمع في الحالات التي يبتعد فيها الحكم الإسلامي الشرعي عن السيطرة على الحياة، بل ينبغي لهم أن

يدرسوا موقعهم ومواقع المسلمين الآخرين في كل الساحات المحلية والإقليمية والدولية، بالطريقة التي تجعل لهم موقعاً فاعلاً في المجالات العامة الحيوية فيما يحفظ لهم وجودهم وموقعهم وامتدادهم انطلاقاً من المصلحة الإسلامية العامة في ذلك، واستيحاء من أسلوب الإمام الكاظم (ع) المتحرك بمرونة في النفوذ إلى مراكز القوة في الدولة التي لا تتمتع بالشرعية لديه.

وقد تكون القضية المطروحة هي مواكبة الاتجاهات الثورية في الدائرة الإسلامية المتحركة باستقلالية معينة عن خط القيادة العامة التي لا تملك الإمكانات العملية الحركية أو لا ترى مصلحة لموقعها القيادي بالتحرك في هذا الاتجاه.. ولكنها تحمل الرغبة في تغيير الواقع وفي العمل على اهتزازه وفي تحريك الناس ضدّه مما يجعل من الثورات المنطلقة من قبل الثائرين الذين يملكون إخلاصاً كبيراً وأمانة قوية واجتهاداً معيناً في أسلوب العمل خطوة متقدمة في الاقتراب من الهدف الكبير الأمر الذي يدفعنا إلى تأييدها والتعاطف معها كما فعل الإمام الكاظم (ع) مع حركة الحسين صاحب فخ، حسب الرواية.

وأخيراً.. إننا ندعو إلى دراسة تراث أئمة أهل البيت (ع) ومواقفهم دراسة جديدة منفتحة على حركة الإسلام كله في كل مواقع المسيرة الإسلامية.. حتى نجعل من حركتنا الإسلامية حركة مرتبطة بحركتهم في الوسائل والأهداف والمواقف والمواقع في دراسة شمولية تنفتح على المراحل كلها في تاريخ الأئمة وعلى الواقع كله في حياتنا الإسلامية العامة.

إننا نحتاج إلى دراسة استيحائية واقعية تبتعد عن الاستغراق في الذات لتقترب من الانطلاق مع الرسالة والحركة والأهداف.

فهرس الموضوعات







